

كتاب

تفصيل النشأتين

و

تحصيل السعادتين

للإمام أبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب
الاصفهاني المتوفى في رأس المائة الخامسة
قدس الله روحه آمين

منقولة عن نسخة خطية قدسية ومقابلة على نسخة أخرى كتبها
لنفسه الشيخ رضي الدين بن أبي بكر الحلبي سنة ٩٦٣
ومصححة في غاية الدقة والاعتناء بمناظرة
الشيخ طاهر الجزائري

طبع في بيروت سنة ١٣١٩

فهرست الكتاب

صحيفة وهو يشتمل على ثلاثة وثلاثين باباً

- ٠٢ ترجمة المؤلف
٠٣ مقدمة الكتاب
١٠ الباب الاول في معرفة الانسان نفسه
١٥ " الثاني في اجناس الموجودات وموضع الانسان منها
١٧ " الثالث في العناصر التي منها اوجد الانسان
٢٠ " الرابع في قوى الاشياء التي جمعت في الانسان
٢٢ " الخامس في تكون الانسان شيئاً فشيئاً حتى يصير انساناً كاملاً
٢٥ " السادس في ظهور الانسان في شعار الموجودات وتخصه بقوة
شيء فشيء منها
٢٧ " السابع في ماهية الانسان
٢٩ " الثامن في كون الانسان مستصلاً للدارين
٣٠ " التاسع في تمثيل ذات الانسان وتصويره
٣٧ " العاشر في كون الانسان هو المقصود من العالم وايجاد ما عداه
لاجله
٣٩ " الحادي عشر في الغرض الذي من اجله اوجد الانسان ومنازلهم
٤٥ " الثاني عشر في تفاوت الناس واخلافهم
٤٧ " الثالث عشر في سبب تفاوت الناس
٥٠ " الرابع عشر في بيان الشجرة النبوية وفضلها على جوه سائر البرية
٥٣ " الخامس عشر في هداية الاشياء الى مصالحها
٥٦ " السادس عشر في سعادة الانسان ونزوعه اليها

٦١	الباب السابع عشر في حال الانسان في دنياه وما يحتاج ان يتزود منها
٦٥	" الثامن عشر في تظاهر العقل والشرع وافنقار احدهما الى الآخر
٦٨	" التاسع عشر في فضيلة الشرع
٧١	" العشرون في بيان ان من لم يتخصص بالشرع وعبادة الرب فليس بانسان
٧٥	" ٢١ ا في ما يتعلق به الشرع من الافعال
٧٧	" ٢٢ ا في تحقيق العبادة
٧٨	" ٢٣ ا في انواع العبادة من العلم والعمل
٨٢	" ٢٤ ا في كون الغرض من العبادة تطهير النفس واجتلاب صحتها
٨٤	" ٢٥ ا في بيان الامراض والانجاس التي لا يمكن ازالتها الا بالشرع
٨٨	" ٢٦ ا في القوى التي تجب ازالة امراضها وانجاسها والمعاني التي تحصل منها
٨٩	" ٢٧ ا في كون الانسان مفضولاً على اصلاح النفس
٩١	" ٢٨ ا في سبب رذيلة الانسان وتأخره عن الفضيلة
٩٣	" ٢٩ ا في احوال الناس ومنازلهم في تعاطي الافعال المحمودة والمذمومة وطرقها
٩٥	" ٣٠ ا في ارتداد الانسان من طريق الخير والشر
١٠٠	" ٣١ ا في قدر ما في الوسع من اكتساب السعادة
١٠٦	" ٣٢ ا في اثبات المعاد وفضيلة الموت وما يحصل له بعده
١١١	" ٣٣ ا في فضيلة الانسان اذا شرف على الملائكة



كتاب

تفصيل النشأتين

و
تحصيل السعادتين

—>>>>>><<<<<<—
للإمام أبي القاسم الحسين بن محمد بن الفضل
الراغب الاصفهاني المتوفى في رأس المائة
الخامسة قدس الله روحه آمين

—>>>>>><<<<<<—
منقولة عن نسخة خطية قدسية ومقابلة على نسخة أخرى
كتبها لنفسه الشيخ رضي الدين بن أبي بكر الحلبي
سنة ٩٦٣هـ. ومصححة في غاية الدقة والاعتناء
بمناظرة الشيخ طاهر الجزائري

طبع في بيروت سنة ١٣١٩

«ترجمة المؤلف»

قال في كشف الظنون : تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتین
 الامام ابی القاسم الحسین بن محمد بن المفضل الراغب الاصفهانی المتوفی
 فی رأس المائة الخامسة مختصراً اوله : الحمد لله الذي ارسل بالنبوة عبده
 ربه علی ثلاثة وثلاثین باباً وفصل فيه النشأة الاولى والنشأة الأخری
 وقال عند ذکر کتاب مفردات الفاظ القرآن العزیز له : قال السیوطی
 فی طبقاته : کان فی اوائل المائة الخامسة . ونقل عن خط الزرکثی مانصه :
 ذکر الامام فخر الدین الرازی فی (تأسیس التقدیس فی الاصول) ان
 الراغب من ائمة السنة وقرانه بالغزالی . هـ

وقال عند (ذکر الذریعة الی مکارم الشریعة) - الذي هو كالمقدمة
 لکتابنا هذا علی ما یظهر من اسلوب الکتابین : قیل ان الامام حجة
 الاسلام الغزالی کان یتصحب کتاب الذریعة دائماً یتحسنه لنفسه .
 وقال عند ذکر تفسیره : هو تفسیر معتبر فی مجلد اورد فی اوله مقدمات
 نافعة فی التفسیر وطرزه (اسلوبه) انه اورد جملاً من الآيات ثم فسرهما
 تفسیراً مشبعاً وهو احد ماخذ انوار التنزیل للبیضاوی . غیر ان بعضهم
 جعل مفردات الراغب احد ماخذ القاضي البیضاوی فی تفسیره
 ولا تنافی بین القولین . وبالجملة فالامام الراغب ممن اجمعت
 علی فضله العلماء الاعلام علی اختلاف مشاربهم وتنوع
 مذاهبهم نعمده الله بالرضوان واسكنه فرادیس الجنان
 ووفق ارباب الهمم العلیة لنشر مؤلفاته
 والاستضاءۃ بنور مشکاته

BP
188
R3
190

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الحمد لله الذي ارسل بالنبوة عبده . وعلمنا على لسانه حمده
ورغبنا فيما عنده . ونسأله ان يصلي على نبيه محمد وعلى آله وان
يهدينا بأوضح دليل . الى انجح سبيل . وبأقوى حجة . الى
اوضح محجة

قال الشيخ ابو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب :
هذه رسالة في تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتین
اما النشأتان فاحداها المذكورة في قوله تعالى : « ولقد علمتم
النشأة الاولى فلولا تذكرون » . والثانية المذكورة في قوله تعالى :
« ثم ينشئ النشأة الآخرة ان الله على كل شيء قدير »
واما السعادتان فاحداها المذكورة في قوله تعالى : « اذكروا
نعمتي التي أنعمت عليكم » . والثانية المذكورة في قوله تعالى :
« واما الذين سعدوا ففي الجنة »
وقد عملت ذلك للاستاذ الكريم ايده الله لما رأيته معنياً

باكتساب الانسانية الموصلة الى السعادتين اعانه الله على
 استفادتها حتى يصير حاوياً لنوعها ومحامياً على معناها ومراعياً
 لخصائصها فقد كاد او قد كان قولنا الانسان لفظاً مطلقاً على
 معنى غير موجود واسماً لحيوان غير معهود كعنفاء مغرب ونحو
 ذلك من الاسماء التي لامعاني لها كما قال تعالى في صفة الاصنام
 المسماة آلهة: «ان هي الا اسماء سميتموها انتم وَاَبَاؤُكُمْ مَا انزل
 الله بها من سلطان» . وقال جل جلاله: «ما تعبدون من دونه الا
 اسماء سميتموها» فجعلها اسماء بلا مسمى ولم أعن بالانسان كل
 حيوان منتصب القامة عريض الظفر املس البشرة ضاحك الوجه
 ممن ينطقون ولكن عن الهوى . ويتعلمون ولكن ما يضرهم ولا
 ينفعهم . ويعلمون ولكن ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة
 هم غافلون . ويكتبون الكتاب بأيديهم ولكن يقولون هذا من
 عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً . ويمجادلون ولكن بالباطل ليدحضوا
 به الحق . ويؤمنون ولكن بالجبت والطاغوت . ويعبدون ولكن
 من دون الله ما يضرهم ولا ينفعهم . ويبيتون ولكن ما لا يرضى
 من القول . ويأتون الصلاة ولكن كسالى ولا يذكرون الله الا
 قليلاً . ويصلون ولكنهم من المصلين الذين هم عن صلاتهم
 ساهون . ويذكرون ولكن اذا ذكروا لا يذكرون . ويدعون

ولكن مع الله الهماً آخر . وينفقون ولكن لا ينفقون إلا وهم كارهون
ويحكمون ولكن حكم الجاهلية يبعون . ويخلقون ولكن يخلقون
إفكاً . فهوؤلاء وان كانوا بالصورة المحسوسة ناساً فهم بالصورة المعقولة
لا ناس ولا نسناس كما قال امير المؤمنين علي بن ابي طالب
كرم الله وجهه : يا اشباه الرجال ولا رجال بل هم من الإانس
المذكور في قوله تعالى : « شياطين الإانس والجن يوحى بعضهم
الى بعض زخرف القول غروراً » . وما ارى البحتري إذا اعتبر
جُلُّ الناس بالخلق لا الخلق مبعداً في قوله :

لم يبق من جُلِّ هذا الناس باقية

ينالها الوهم إلا هذه الصور

ولا من يقول :

فجلهم إذا فكرت فيهم حمير أو كلاب أو ذئاب

ولا تحسبن هذه الايات اقوالاً شعرية واطلاقات مجازية
فان الله تعالى يقول : « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون او يعقلون
إن هم إلا كالأنعام بل هم اضل سبيلاً » . وقد انبأت في هذه
الرسالة عن جملة الموجودات ومكان الانسان منها ومبداها ومنشأها
ومنتهاها وما جعل له من السعادة في الدارين باكتساب الانسانية
وكيفية التطرق اليها وابتدأت بالتنيه على وجوب معرفة

الانسان ذاته فمن علم أن شيئاً ما هو مما يجب ان يُعلم فانه وان لم يعلمه فقد يحصل له بذلك علمٌ . فمن العلم ان تعلم أنك لا تعلم وعلم الانسان بجهله احد العلمين * قال ابن عباس رضي الله عنه : من لم يجد مسَّ نقص الجهل في عقله وذلَّ المعصية في قلبه ولم يستبخر الخلة في لسانه عند كلال حدّه عن حدّ خصمه فليس ممن ينزع عن دنية ولا يرغب عن حال معجزة ولا يكثر لفصل ما بين حجة وشبهة * وبقدر معرفة منفعة الشيء يحرص الانسان على طلبه ويصبر على تحمل المشقة في تحصيله ولذلك قال الله تعالى في صفة من جهل نفع مطلوبه : (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً) . فأعرف ايها الفاضل فضيلة الانسانية وما أعدَّ من الفلاح لمن تزكى كما قال تعالى : (قد افلح من زكّاه) فإنها هي المكارم لا قعبان^(١) من لبن شيبا بماء فعادا بعد ابوالا ولا يتكادتك^(٢) بعد الشقة وفعل من يروك طاقه ورواقه فانجاوزت كسوته اليه فليس وراء عبّادان^(٣) قرية بل لا تراها الا عبداً الحجر او مدر او بهيمة او طعينة كمن ذمه النبي صلى الله

(١) مثى قعب وهو القدح الضخم (٢) تكادني الامر شقّ علي
 كتكادني (٣) عبّادان جزيرة احاط بها شعبتا دجلة ساكبتين في
 بحر فارس

تعالی علیه وسلم بقوله : تعسَ عبدُ الدرهم تعسَ عبدُ الدينار تعسَ
وانتکسَ واذا شیک فلا انتقش . فأنتک في عنفوان شبابک ولدونة
اغصانک *

واعلم انه ليس يحسن بذی همة قد احسن الله اليه في خلقه
وَخَلَقَهُ وَقَيَّضَ لَهُ مَنْ رَبَّاهُ فَاحْسَنُ تَرْبِيَتِهِ وَازْأَحُ فِي مَعَاوَنَتِهِ بَعْدَ
بَلُوغِهِ عِلْمَهُ اِنْ يَرْضَى بِأَنْ يَكُونَ حَيْوَانًا وَقَدْ امكَنَهُ اِنْ يَصِيرُ اِنْسَانًا
اَوْ بِأَنْ يَكُونَ اِنْسَانًا وَقَدْ امكَنَهُ اِنْ يَصِيرُ مَلَكًا اَوْ بِأَنْ يَكُونَ مَلَكًا
وَقَدْ امكَنَهُ اِنْ يَصِيرُ مَلَكًا فِي مَقْعَدِ صَدَقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مَقْنَدِرٍ فَتَقْوِمُ
الْمَلَائِكَةُ بِخِدْمَتِهِ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ
مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ . وَفَقْنَا اللهُ
لِذَلِكَ وَلَا جَعَلْنَا مِنَ الْكُفَّالِ الْمَوْصُوفِينَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (لَوْ كَانِ
عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْعُوكُ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ)
جَعَلْنَا اللهُ وَايَاكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَوْصُوفِينَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (هُوَ الَّذِي
انزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ) وَبِقَوْلِهِ : (اُولَئِكَ كَتَبَ فِي
قُلُوبِهِمُ الْاِيْمَانَ وَايَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ) حَتَّى لَا تَغْتَرَّبَا هُوَ كَسْرَابٌ بَقِيْعَةٌ
يَحْسِبُهُ الظُّلْمَانُ مَاءً حَتَّى اِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا



تراجم ابواب الكتاب

وهي ثلاثة وثلاثون باباً



- « ١ » ا في معرفة الانسان نفسه
 « ٢ » ب في اجناس الموجودات وموضع الانسان منها
 « ٣ » ج في العناصر التي منها اوجد الانسان
 « ٤ » د في قوى الاشياء التي جمعت في الانسان
 « ٥ » هـ في تكون الانسان شيئاً فشيئاً حتى يصير انساناً كاملاً
 « ٦ » و في ظهور الانسان في شعار الموجودات وتخصه بقوة شيء
 فشيء منها
 « ٧ » ز في ماهية الانسان
 « ٨ » ح في كون الانسان مستلحماً للدارين
 « ٩ » ط في تمثيل ذات الانسان وتصويره
 « ١٠ » ي في كون الانسان هو المقصود من العالم وايجاد ماعداه لاجله
 « ١١ » يا في الغرض الذي من اجله اوجد الانسان ومنازلهم
 « ١٢ » يب في تفاوت الناس واخلافهم
 « ١٣ » يج في سبب تفاوت الناس
 « ١٤ » يد في بيان الشجرة النبوية وفضلها علي جوهر سائر البرية
 « ١٥ » يه في هداية الاشياء الى مصالحها
 « ١٦ » يو في سعادة الانسان ونزوعه اليها

- «١٧» يز في حال الانسان في دنياه وما يحتاج ان يتزود منها
 «١٨» يح في تظاهر العقل والشرع وافنقار احدهما الى الاخر
 «١٩» يط في فضيلة الشرع
 «٢٠» ك في بيان ان من لم يتخصص بالشرع وعبادة الرب فليس بانسان
 «٢١» كا في ما يتعلق به الشرع من الافعال
 «٢٢» كب في تحقيق العبادة
 «٢٣» كج في انواع العبادة من العلم والعمل
 «٢٤» كد في كون الغرض من العبادة تطهير النفس واجتلاب صحتها
 «٢٥» كه في بيان الامراض والانجاس التي لا يمكن ازالتها الا بالشرع
 «٢٦» كو في القوى التي تجب ازالة امراضها وانجاسها والمعاني التي
 تحصل بذلك
 «٢٧» كز في كون الانسان مفطوراً على اصلاح النفس
 «٢٨» كح في سبب رذيلة الانسان وتأخره عن الفضيلة
 «٢٩» كط في احوال الناس ومنازلهم في تعاطي الافعال المحمودة
 والمذمومة وطرقها
 «٣٠» ل في ارتداد الانسان من طريق الخير والشر
 «٣١» لا في قدر ما في الوسع من اكتساب السعادة
 «٣٢» لب في اثبات المعاد وفضيلة الموت وما يحصل له بعده
 «٣٣» لج في فضيله الانسان اذا شرف على المالك



الباب الاول

في معرفة الانسان نفسه

قالت الحكماء مرةً : اول ما يلزم الانسان معرفته نفسه
وقالوا مرةً : اول ما يلزمه معرفة الله تعالى . وليس بين هذين القولين
منافاة فانهم عنوا بالأول حيث قالوا معرفة النفس الاول من
حيث الترتيب الصناعي وعنوا (بالأول ايضاً) حيث قالوا معرفة
الله الأول من حيث الشرف والفضل فان معرفة الله هي افضل
المعارف . وفي معرفة النفس اطلاع على امور كثيرة :

احدها : انه بواسطتها يتوصل الانسان الى معرفة غيرها ومن

جهلها جهل كل ما عداها

والثاني : ان نفس الانسان مجمع الموجودات كما نبين بعد

فمن عرفها فقد عرف الموجودات ولذلك قال الله تعالى : (اولم

يتفكروا في انفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا

بالحق واولم يسميوا انفسهم من الناس بلقاء ربهم لكافرون)

تسبيهاً على انهم لو تدبروا انفسهم وعرفوها عرفوا بمعرفتها حقائق

الموجودات فانها وبقاياها وعرفوا بها حقيقة السموات والارضين

ولما انكروا البعث الذي هو لقاء ربهم قال الله : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ۞) وقال : (وفي الارض آيات للموقنين وفي انفسكم أفلا تبصرون)

والثالث : ان من عرف نفسه عرف العالم ومن عرفه صار في حكم المشاهد لله تعالى وهو يخلق السموات والارض ولم يكن كالكفرة الجهمية الذين اثنكهم^(۱) هذه المنزلة فقال فيهم : (ماشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً)

والرابع : انه يعرف بمعرفة روحه العالم الروحاني وبقاءه وبمعرفة جسده العالم الجسداني وفناءه فيعرف خسة الفانيات وشرف الباقيات الصالحات

والخامس : ان من عرف نفسه عرف اعداءه الكامنة فيها المشار اليها بقوله صلى الله عليه وسلم : اعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك فيستعيز منها . كما قال عليه الصلاة والسلام : اللهم الهمني رشدي وأعذني من شر نفسي . وقال : لا تكني الى نفسي طرفه عين فأهلك . ومن عرف اعداءه الكامنة ومكانها وكيفية انبعاثها احسن ان يجترز منها وان يجاهدها فيستحق ما وعد

(۱) الثكلي المرأة التي فقدت ولدها واثنكها الله جعلها ثكلي

الله به المجاهدين في سبيله ومن لم يعرفها فخذيران يتراءى له عدوه
الذي هو الهوى بصورة العقل فيتصور له الباطل بصورة الحق وقد
قال النبي صلى الله عليه وسلم : الهوى شيطان بل قال هو اله
يُعبد من دون الله . وقد روي انه قال صلى الله عليه وسلم : ما عبد
في الارض اله ابغض الى الله من الهوى ثم تلا : (افرأيت
من اتخذ الهه هواه)

والسادس : ان من عرف نفسه عرف ان يسوسها ومن أحسن
ان يسوس نفسه احسن ان يسوس العالم فيصير من خلفاء الله
المذكورين في قوله تعالى : (ويستخلفكم في الارض) ومن
الملوك المذكورين في قوله تعالى : (وجعلكم ملوكاً)

والسابع : ان من عرفها لم يجد عيباً في احد الا رآه موجوداً
في ذاته إما ظاهراً منبعثاً او كامناً فيه ككمون النار في الحجر فلا
يكون هملاً ولا مأزاً وعيباً فان كل عيب تراءى له من غيره وجده
في نفسه ومن رأى عيب نفسه فخذيران يكون ممن دعا له النبي
صلى الله عليه وسلم بقوله : رحم الله امرءاً اشغله عيبه عن عيوب
غيره * ومعرفة عيب النفس صعب من حيث ان كل انسان
يجب نفسه وجهه لها يعنيه عن معايبها كما قال صلى الله عليه وسلم :
حبك الشيء يعمي ويصم * والأعمى والأصم عن عيب الشيء

قد يعجب به . ولا ضرر اعظم من إعجاب المرء بنفسه وقد قال بعض الحكماء : الكاذب في نهاية البعد عن الحق والمرائي أسوأ حالاً من الكاذب لأن الكاذب يكذب بقوله فقط والمرائي يكذب بقوله وفعله . قال : وأسوأ حالاً منهما المعجب بنفسه لأن الكاذب والمرائي قد يتنفع بهما والمعجب بنفسه لا نفع فيه بوجهٍ ولاً منهما قد ينفع وينجع وعظك فيهما لعلهما بنفسهما . والمعجب بنفسه لجهله يضنك في وعظك اياه ملغياً

والثامن : ان من عرف نفسه فقد عرف الله تعالى فقد رُوي انه ما نزل الله من كتاب الا وفيه : اعرف نفسك يا انسان تعرف ربك وهذا معنى قوله تعالى : « سترهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم الآية * » وفي هذا الخبر ثلاث تأويلات : احدها ان بمعرفة النفس يتوصل الى معرفة الله عز وجل كقولك اعرف العربية تعرف الفقه اي بمعرفة العربية يتوصل الى معرفة الفقه وان كان بينهما وسائط . والثاني انه اذا حصل معرفة النفس حصل بمصولها معرفة الله بلا فاصل كقولك بطلوع الشمس يحصل الضوء فيكون الضوء مقترناً بطلوعها غير متأخر عنها بزمان . والثالث ان معرفة الله تعالى ليست تثبت الا ان تُعرف النفس لانك اذا عرفتها على الحقيقة فقد عرفت العالم فاذا عرفت العالم عرفت انه

محدث وان لا بد له من محدث لا يشبه المحدث بوجه وذلك هو غاية معرفة الله تعالى . قالوا وعلى هذا دل معنى قول امير المؤمنين كرم الله وجهه : ان العقل لاقامة رسم العبودية لا لا إدراك الربوبية ثم انشأ يقول :

كيفية النفس ليس المرء يعرفها فكيف كيفية الجبار في القدم هو الذي أنشأ الأشياء مبتدئاً فكيف يدركه مستحدث النسم وقال ايضاً :

العجز عن درك الادراك ادراك والبحث عن سر ذات السر اشراك وفي سرائر همات الورى همم عن ذا الذي عجزت جن واملالك يهدي اليه الذي منه اليه هدى مستدركاً وولي الله مدراك وقال ابو بكر الصديق رضي الله عنه : يا من غاية معرفته القصور عن معرفته . وقال الله تعالى : « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » تنبيهاً على انهم لو عرفوا أنفسهم لعرفوا الله فلما جهلوه دل جهلهم اياه على جهلهم اياها

الباب الثاني

في ذكر اجناس الموجودات وموضع الانسان منها

اعلم ان الله تعالى هو الواجب الوجود الذي لا سبب لوجوده بل هو سبب كل موجود . وكل موجود فمنه وبه تعالى وجوده . والموجودات ضربان : المعقولات العلوية والمحسوسات السفلية وايجاده تعالى للمعقولات العلوية قبل ايجاده للمحسوسات السفلية كما روي انه اول ما خلق الله تعالى القلم ثم الموح وقال اجر بما هو كائن الى يوم القيامة . وروي انه اول ما خلق الله العقل فقال له اقبل فأقبل ثم قال له ادبر فأدبر فقال بعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً اكرم علي منك بك آخذ وبك أعطي ولك الثواب وعليك العقاب * وليس المراد بالعقل ههنا العقول البشرية بل الاشارة به الى جوهر شريف عنه تنبعث العقول البشرية . وقال قوم: العقل ههنا عبارة عن القلم المذكور في الخبر الآخر والله اعلم ثم اوجد الله تعالى الروحانيات الذين لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون وايجاد هذه الاشياء على سبيل الابداع . والابداع هو ايجاد الشيء لا عن شيء موجود من قبل . ثم خلق

الأركان الأربعة والجملادات والناميات والحيوانات وختم بالصورة
 الإنسانية كما دل عليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: خلق الله
 تعالى يوم الأحد كذا ويوم الاثنين كذا إلى أن قال وخلق
 الإنسان يوم الجمعة آخر النهار. والخلق في أكثر الأحوال يقال في
 إيجاد الشيء من الشيء قبله نخلق الإنسان من التراب ويقضى
 تركيباً ولذلك قال الله تعالى: (ومن كل شيء خلقنا زوجين
 لعلكم تذكرون) . وإلى الأشياء المركبة أشار بقوله تعالى: (أولم
 يروا إلى الأرض كم ابتنا فيها من كل زوج كريم) . واعلم أن كل
 شيء من المبدعات فتمام لا نقص فيه ولو كان فيه نقص لدل
 ذلك على نقصان مبدعه وصانعه فأما المخلوق الذي هو مركب من
 شيء فقد يحتمل أن يكون فيه نقص ويكون نقصه عارضاً من
 جهة ما تركب منه لا من جهة مركبه وفاعله فلهاذا صارت
 المبدعات من الأشياء العلوية معرّاة عن اعتراض الفساد فيها حالاً
 فخالابل تبقى على حالتها إلى أن يشاء الله تعالى أن يرفع العالم
 والإنسان إنسانان: أحدهما آدم الذي هو أبو البشر ويمجري
 هو من سائر الناس مجرى البذر الذي منه الشيء غيره والباري تعالى
 قد تولى بنفسه إيجاده وتربيته وتعليمه كما نبه عليه بقوله تعالى:
 (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) . وقوله تعالى: (وعلم آدم)

الاسماء كلها) والثاني بنوه وموجدهم ايضاً الباري تعالى ولكن جعل
انشاءهم وتربيتهم وتعليمهم بوسائط جسمانية وروحانية فالجسماني
كالا بويين والروحاني كالملائكة المدبرات والمقسمات الذين
يتولون انشاءه وتربيته كما روي في الخبر: الولد يكون اربعين يوماً
نطفةً ثم يصير علقةً ثم يصير مضغةً ثم يبعثُ الله ملكاً فينفخ فيه
الروح الى غير ذلك من الاخبار. ولكون الابوين سبباً في وجود
الولد عظم الله تعالى حقهما والزم بعد شكره شكرهما فقال: (اشكر
لي ولوالديك) . ويسمى الولد ابناً وهو مشتق من بنيتُ البنية
تنبهياً على انه جار للاب مجرى البناء للباني

الباب الثالث

في ذكر العناصر التي منها أوجد الانسان

ذكر الله تعالى العناصر التي خلق منها آدم عليه السلام ونبه
على انه جعله انساناً في سبع درجات . و اشار الى ذلك في مواضع
مختلفة حسب ما اقتضته الحكمة فقال في موضع خلقه من تراب
اشارةً الى المبدأ الاول . وفي آخر من طين اشارة الى الجمع بين
التراب والماء . وفي آخر من حماء مسنون اشارةً الى الطين المتغير
بالهواء ادنى تميز . وفي آخر من طين لازب اشارةً الى الطين

المستقرّ على حالة من الاعتدال يصلح لقبول الصورة . وفي آخر
من صلصال من حماء مسنون اشارة الى بئسه وسماع صلصلة منه
وفي آخر من صلصال كالفخار . وهو الذي قد اُصلح بأثر من النار
فصار كالخزف وبهذه القوة النارية حصل في الانسان اثر من
الشيطنة وعلى هذا المعنى دلّ بقوله : (خلق الانسان من صلصال
كالفخار وخلق الجنّ من مارج من نار) . فنبه على ان الانسان فيه
من القوة الشيطانية بقدر ما في الفخار من اثر النار وان الشيطان
ذاته من المارج الذي لا استقرار له . ثم نبه الله على تكميل الانسان
بنفخ الروح فيه فقال : (اني خالق بشرًا من طين فاذا سوّيته
ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) . فهذه سبع درجات
نبه عليها كما ترى . ثم دلّ على تكميل نفسه بالعلوم والاداب بقوله
تعالى : (وعلم آدم الاسماء كلّها) ثم ذكر خلق بني آدم وعناصرهم
التي اوجدها حالة بعد حالة فنبه على انه جعلهم اناسًا في سبع
درجات حسب ما جعل آدم عليه السلام فقال تعالى : (ولقد
خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين
ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظامًا
فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقًا آخر فتبارك الله احسن
الخالقين . وقوله تعالى : (ثم انشأناه خلقًا آخر) اشار به الى ما جعل

له من قوة العقل والفكر والنطق . فان قيل فلم قال فكسونا العظام
لحمًا ولم يقل فخلقنا منه لحمًا كما قال في الأول . قيل اشارة منه تعالى
الى لطيفة من صنعه وهو ان النطفة انتهت الى صورة العظم ثم
انشأ الله اللحم انشاءً آخر لا من النطفة واجراها مجرى الكسوة التي
قد يخلعها الانسان ويجددُها ولذلك اذا قطع من الحيوان لحمٌ عاد
ولم يكن كالعظم الذي لا يعود بعد قطعه * فان قيل كيف حكم
على جميع الناس انه خلقهم من سلالة من طين والمخلوق منها هو
آدم دون اولاده . قيل ان ذلك على وجهين : احدهما انه لما
خلق آدم من سلالة من طين فأولاده الذين منه هم ايضاً منها .
والثاني ان الانسان يتكوّن من النطفة ويتربى بدم الطمث (١) وهما
يتكوّنان من الغذاء والغذاء يتكوّن من الحيوان والحيوان من
النبات والنبات من سلالة من طين فاذا الانسان على الحقيقة من
سلالة من طين وعلى هذا نبه الله تعالى بقوله : (انا صببنا الماء
صباً ثم شققنا الارض شقاً فانبثنا فيها حباً وعنباً وقضباً . وقوله :
(ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفةً في
قرار مكين) وقوله : (خلقكم من تراب ثم من نطفة) . فجعله
الله تعالى من تراب على هذا الوجه . وقال : (ومن آياته ان

خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشرٌ تنتشرون) وفي آخر: (خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين . وعني بالانسان ههنا آدم ولذلك قال : ثم جعل نسله . فاقصر ههنا على النطفة دون المبدأ الاول الذي هو التراب . وانما ذكر هذه المبادي متفرقةً لحكمة اقتضت تخصيص ذكرها في موضعها الذي ذكرها فيه وليس شرح تخصيص ذكر كل واحد من ذلك في موضعه مما يليق بهذا الكتاب



الباب الرابع

في ذكر قوى الاشياء التي جمعت في الانسان

الانسان قد جمع فيه قوى العالم وأوجد بعد وجود الاشياء التي جمعت فيه وعلى هذا نبه الله تعالى بقوله : (الذي احسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين) . وقول النبي صلى الله عليه وسلم الذي تقدم ذكره . وقد جمع الله تعالى في الانسان قوى بسائط العالم ومركباته وروحانياته وجسمانياته ومبدئاته ومكوناته . فالانسان من حيث انه بوساطة العالم حصل ومن اركانه وقواه اوجد هو العالم . ومن حيث انه صغر شكله وجمع فيه قواه كالمختصر من العالم فان المختصر من الكتاب هو الذي

قُلِّ لفظه وأستوفي معناه . والانسان هكذا هو اذا اعتبر بالعالم .
 ومن حيث انه جعل من صفوة العالم ولبابه وخلاصته وثمرته فهو
 كالزُّبْد من الخيض والدهن من السمسم فما من شيء الا والانسان
 يشبهه من وجه فانه كالاركان من حيث ما فيه من الحرارة
 والبرودة والرطوبة واليبوسة . وكالمعادن من حيث ما هو جسم .
 وكالنبات من حيث ما يتغذى ويتربى . وكالبيهمة من حيث
 ما يحس ويتوهم ويتخيل ويلتذو بتألم . وكالسبع من حيث ما يجرض ^(۱)
 ويفضب . وكالشیطان من حيث ما يغوي ويضل . وكالملائكة
 من حيث ما يعرف الله تعالى ويعبده ويخلفه . وكالموح المحفوظ
 من حيث قد جعله الله مجمع الحكم التي كتبها فيه على سبيل
 الاختصار . فقد ذكر بعض الحكماء في بدن الانسان اربعة الاف
 حكمة وفي نفسه قريبا من ذلك . وكالقلم من حيث ما يثبت
 بكلامه صور الاشياء في قلوب الناس كما ان القلم يثبت الحكم في
 اللوح المحفوظ * ولكون الانسان من قوى مختلفة قال الله تعالى :
 (انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج) اي مختلطة من قوى اشياء
 مختلفة . ولكون العالم والانسان متشابهين اذا اعتبرا قيل الانسان
 عالم صغير والعالم انسان كبير ولذلك قال الله تعالى : (ما خلقكم

(۱) حرّض ككرم طال همه وسقمه

ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) . فاشأز بالنفس الواحدة الى ذات العالم . ولما كان كل مركب من اشياء مختلفة يحصل باجتماعهن معنى ليس بموجود فيهن على انفرادهن كالمركبات من الادوية والاطعمة كذلك في نفس الانسان حصل معنى ليس في شيء من موجودات العالم وذلك المعنى هو ما يختص به من خصائصه التي بها تميز عن غيره من هيات له كالتصايب القامة وعرض الظفر وانفعالات له كالضحك والحياء وافعال كتصور المعقولات وتعلم الصناعات واكتساب الاخلاق

الباب الخامس

في تكوين الانسان شيئاً فشيئاً حتى يصير انساناً كاملاً .
الانسان يكون اولاً جماداً ميتاً قال الله تعالى : (وكنتم امواتاً فأحياكم . وذلك حيث كان تراباً وطيناً وصلصالاً ونحوها . ثم يصير نباتاً نامياً كما قال الله تعالى : (والله انبتكم من الارض نباتاً) وذلك حيث ما كان نطفة وعلقة ومضغة ونحوها . ثم يصير حيواناً وذلك حيث ما يتبع بطبعه بعض ما ينفعه ويحترز من بعض ما يضره . ثم يصير انساناً مختصاً بالافعال الانسانية وقد نبه الله تعالى على ذلك في مواضع نحو قوله : (يا ايها الناس ان كنتم في

رب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه
ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة الآية . وقوله : (ا كفرت بالذي
خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا) . فأول ما يظهر
فيه قوة النزاع الموجودة في النبات والحيوان ثم قوة تناول الموافق
ودفع المخالف ثم الحس ثم التخيل ثم التصور ثم التفكير ثم العقل فهو
لم يصير انساناً الا بالفكر والعقل الذي به يميز بين الخير والشر والجميل
والقبيح . والى العقل اشار الله تعالى بقوله : (وصوركم فأحسن
صورتكم) . فالانسان بعقله صار معدن العلم ومركز الحكمة .
ووجود العقل فيه في ابتداء الامر بالقوة كوجود النار في الحجر
المتحاج في ان يري^(۱) الى الاقنداح وكوجود النخل في النوى
المتحاجة في ان تثمر الى غرس وسقي . وكوجود الماء تحت الارض
المتحاجة في الاسنقاء منه الى حفره * ونفس الانسان واقعة بين
قوتين : قوة الشهوة وقوة العقل . فبقوة الشهوة يحرص على تناول
اللذات البدنية البيهيمية كالغذاء والسفاد والتغالب وسائر اللذات
العاجلة . وبقوة العقل يحرص على تناول العلوم والافعال الجميلة
والامور المحمودة العاقبة . والى هاتين القوتين اشار الله تعالى
بقوله : (انا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) . وبقوله :

(۱) من وريّ الزند اذا خرجت ناره

(وهديناه التجدين)

ولما كان من جبلة الانسان ان يتجرى ما فيه اللذة وكانت
الذات على ضربين : احدهما محسوس كلذة المذوقات والموسات
والمشمومات والمسموعات والمبصرات وهي من توابع الشهوة الحيوانية
والثاني معقول كلذة العلم وتعاطي الخير وفعل الجميل . والذات
المحسوسة اغلب علينا لكونها اقدم وجوداً فبنا لانها توجد في
الانسان قبل ان يولد وهي ضرورية في الوقت ولذلك قال الله
تعالى : (يحبون العاجلة ويذرون الآخرة) ولذلك يكره اكثر
الناس ما يأمربه العقل ويميل الى ما يأمربه الهوى حتى قيل : العقل
صديق مقطوع والهوى عدو متبوع . ولذلك قال النبي صلى الله
عليه وسلم : حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات . ولذلك
يحتاج الانسان ان يقاد في بدا امره الى مصالحه بضرب من القهر
حتى قال صلى الله عليه وسلم : يا عجباً لقوم يقادون الى الجنة
بالسلاسل . فحق الانسان ان يجاهد هواه الى ان يقتم العقبة
فيتخلص حينئذ من اذاه

وللنفس نظران : نظرٌ الى فوق نحو العقل ومنه تستمد المعارف
وتميز بين المحاسن والقبائح فعترف كيف تتجرى المحاسن وتجنب
القبائح . ونظرٌ الى تحت نحو الهوى وبه تنسى الحقائق وتألف

الحسيات بل القاذورات . والنفس متى كانت شريفة ادامت النظر الى فوق كما ذكرنا ولا تنظر الى مادونها الا عند الضرورة ولا نتاول اللذات البدنية الا بحسب ما يرسمه العقل المستمد من الشرع او اذا كانت دنيّة أكثر الميل الى الشهوات البدنية فيحدث ذلك لها اذعاناً وانقياداً للشهوات فيستعبد لها الهوى كما قال الله تعالى: (أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ اللَّهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ) وإنما اضله بعد ان اتخذ الهه هواء وجعله عبداً للأغراض دنيوية كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : تعس عبد الدرهم . الخبر . ومن هذه العبودية استعاذ ابراهيم الخليل عليه السلام حيث قال : (وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ)

الباب السادس

في ظهور الانسان في شعار الموجودات وتخصيصه بقوة شيء فشيء منها ذات الانسان من حيث ما اجتمع فيه قوى الموجودات صاروعاء معاني العالم وطينة صورته ومعدن آثاره وجمع حقائقه وكأنه مركب من جمادات ونباتات وبهائم وسباع وشياطين وملائكة ولذلك قد يظهر في شعار كل واحد من ذلك فيجري تارة مجرى الجمادات في الكسل وقلة التحرك والانبعاث وعلى هذا

نبه الله تعالى بقوله : (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة
 او اشد قسوة) وقد يظهر في شعار النباتات الحميدة او الذميمة فيصير
 إما كالأترج^(١) الذي يطيب حمله ونوره^(٢) وعوده وورقه او
 كالنخل والكرم فيما يؤتي من النفع او كالكشوت^(٣) في عدم الخير
 او كالحنظل في خبث المذاق وعلى هذا نبه الله تعالى بقوله : (مثل
 كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها
 كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون
 ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة أُجْتُتَّت^(٤) من فوق الارض بالها
 من قرار) . ويظهر تارة في شعار الحيوانات المحمودة والمذمومة فيصير
 اما كالنحل في كثرة منافعه وقلة مضاره وفي حسن سياسته قال
 الله تعالى : (وأوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتاً
 ومن الشجر ومما يعرشون) او كالطير المسمى بأبي الوفا او كالحنزير
 في الشره او كالذئب في العيث او كالكلب في الحرص او كالنمل
 في الجمع او كالفار في السرقة او كالثعلب في المراوغة او كالقرد في
 المحاكاة او كالحمار في البلادة او كالثور في الفظاظة وعلى هذا

(١) الأترج : فاكهة معروفة الواحدة أترجة . (٢) النور : الزهر .

(٣) الكشوت بفتح الكاف وضمها : نبت يتعلق بالأغصان لا عرق له ولا

ورق ولا نسيم ولا ظل ولا زهر وهو يفسد الثمار ويضر الأشجار . (٤) الجثث

القطع او انتزاع الشجر من اصله

النحو من المشابهات دلَّ الله بقوله : « وما من دابة في الارض ولا
 طائر يطير بجناحيه الاَّ اُمُّ امثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء
 ثم الى ربهم يحشرون » ويظهر تارة في شعار الشياطين فيغوي
 ويضل ويسول بالباطل في صورة الحق كما دلَّ الله تعالى بقوله :
 « شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول
 غرورا » وانما يكون انساناً اذا وضع كل واحد من هذه الاشياء
 في موضعه حسب ما يقنضيه العقل المرتضي المستبصر بنور الشرع

الباب السابع

في ماهية الانسان

ماهية كل شيء تحصل بصورته التي يتميز بها عن اغياره كصورة
 السكين والسيف والمنجل ونحوها ولما كان الانسان جزئين بدن
 محسوس وروح معقول كما نبه الله تعالى عليه بقوله : « اني خالق
 بشراً من طين فاذا سوَّيته ونفختُ فيه من روحي فقعوا له
 ساجدين » كان له بحسب كل واحد من الجزئين صورة فصورته
 المحسوسة البدنية انتصاب القامة وعرض الظفر وتعري البشرة عن
 الشعر والضحك وصورته المعقولة الروحانية العقل والفكر والروية
 والنطق قالوا فالانسان هو الحيوان الناطق ولم يعنوا بالناطق اللفظ

المعبر به فقط بل عنوانه المعاني المختصة بالانسان فعبروا عن كل ذلك بالنطق فقد يعبر عن جملة الشيء بأخص ما فيه او بأشرفه او بأوله كقولك سورة الرحمن وسورة يوسف وسورة لا يلاف ونحو ذلك فالانسان يقال على ضربين عام وخاص فالعام ان يقال لكل منتصب القامة مختص بقوة الفكر واستفادة العلم والخاص ان يقال لمن عرف الحق فاعنقده والخير فعمله بحسب وسعه وهذا معنى يتفاضل فيه الناس ويتفاوتون فيه تفاوتاً بعيداً وبحسب تحصيله يستحق الانسانية وهي تعاطي الفعل المختص بالانسان فيقال فلان اكثر انسانية. وكما يقال الانسان على وجهين يقال له الحيوان الناطق على وجهين عام ويراد به من في قوة نوعه استفادة الحق والخير كقولك الانسان هو الكاتب دون الفرس والحمار اي هو الذي في قوته استفادة الكتابة. وخاص ويراد به من حصل الحق فاعنقده والخير فعمله كما يقال زيد هو الكاتب دون عمرو اي هو المختص بعلم الكتابة. وكذا يقال له عبد الله على وجهين عام ويراد به الحيوان المتعرض لارتسام او امر الله ارتسم او لم يرتسم وهو المشار اليه بقوله تعالى: (ان كل من في السموات والارض الا اتي الرحمن عبداً) وخاص وهو المرتسم لاوامر الله تعالى كما قال سبحانه: (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان)

وكذا يقال له حيٌ وسميعٌ وبصيرٌ ومتكلمٌ وعاقِلٌ كل ذلك على وجهين يقال عاماً وهو لمن له الحياة الحيوانية التي بها الحس والتخيل والنزوع والشهوة ولمن سمع الاصوات ولمن يدرك الالوان ولمن يفهم الكافة بما يريد به ولمن له القوة التي يتبعها التكليف والثاني يقال له خاصاً وهو لمن له الحياة التي هي العلم المقصود بقول الله تعالى : (لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا) وله السمع الذي به يسمع حقائق المعقولات والبصيرة التي بها يدرك الاعتبار واللسان الذي به يورد التحقيقات وهي نفاها عن الجهالة الكفرة في قوله تعالى : (صمٌ بكمٌ عميٌ فهمٌ لا يعقلون)

الباب الثامن

في كون الانسان مستصلاً للدارين

الانسان من بين الموجودات مخلوق خلقه تصليح للدارين وذلك ان الله تعالى قد اوجد ثلاثة انواع من الأحياء نوعاً للدار الدنيا وهي الحيوانات ونوعاً للدار الآخرة وهو الملائكة ونوعاً للدارين وهو الانسان فالانسان واسطة بين جوهرين وضيع وهو الحيوانات ورفيع وهو الملائكة فجمع فيه قوى العالمين وجعله كالحيوانات في الشهوة البدنية والغذاء والتناسل والمهارة والمنازعة

وغير ذلك من اوصاف الحيوانات . وكالملائكة في العقل والعلم
 وعبادة الرب والصدق والوفاء ونحو ذلك من الاخلاق الشريفة
 ووجه الحكمة في ذلك انه تعالى لما رشحه لعبادته وخلافته وعمارته
 ارضه وهياؤه مع ذلك لمجاورته في جنته افاضت الحكمة ان يجمع
 له القوتين فانه لو خلق كالبهيمة معرى عن العقل لما صلح لعبادة
 الله تعالى وخلافته كما لم يصلح لذلك البهائم ولا لمجاورته ودخول
 جنته . ولو خلق كالملائكة معرى عن الحاجة البدنية لم يصلح لعمارته
 ارضه كما لم يصلح لذلك الملائكة حيث قال تعالى في جوابهم :
 « إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » فاقضت الحكمة الالهية ان يجمع له
 القوتان وفي اعتبار هذه الجملة تنبيه على ان الانسان دينوي
 واخروي وانه لم يُخلق عبثاً كما نبه الله عليه بقوله : « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا
 خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنتُمْ آلِنَا لَا تَرْجِعُونَ »

الباب التاسع

في تمثيل ذات الانسان وتصويره

قد ذكر الحكماء لذات الانسان وقواها مثلاً صوروها بها
 فيتمثل كل ما لا يدرك الا بالعقل بتصور الحس ليقرب من الفهم
 فقالوا ذات الانسان لما كان عالماً صغيراً كما تقدم جرى مجرى

بلد احکم بناؤه وشید بنیانه وحصن سورہ وخطت شوارعه وقسمت
 محاله وعمرت بالسکان دورہ وسکت سبلہ واجريت انہارہ
 وفتحت اسواقہ واستعملت صناعہ وجعل فیہ ملک مدبر وللملک
 وزیر وصاحب بريد واصحاب اخبار وخازن وترجمان وكاتب
 وفي البلد اخيار واشرار . فصناعها هي القوى السبعة التي يقال لها
 الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والنامية والغاذية والمصورة
 والملک العقل ومنبعه من القلب . والوزير القوة المفكرة ومسكنها
 وسط الدماغ . وصاحب البريد القوة المتخيلة ومسكنها مقدم
 الدماغ . واصحاب الاخبار الحواس الخمس ومسكنها الاعضاء
 الخمسة . والخازن القوة الحافظة ومسكنها خلف الدماغ . والترجمان
 القوة الناطقة وآلتها اللسان . والكاتب القوة الكاتبة وآلتها اليد
 ومسكنها الاخبار والاشرار هي القوى التي منها الاخلاق الجميلة
 والاخلاق القبيحة وكما أن الوالي اذا تزكى وساس الناس بسياسة
 الله صار ظل الله في الارض كما روي أن النبي صلى الله عليه
 وسلم قال: السلطان ظل الله في الارض ويجب على الكافة طاعته
 كما قال الله تعالى: « اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم »
 كذلك متى جعل العقل سائساً وجب على سائر قوے النفس
 ان تطيعه . وكما ان الله تعالى جعل الناس متفاوتين كما نبه

الله تعالى عليه بقوله : « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات
 ليأخذ بعضهم بعضاً سخرياً » . كذلك جعل قوى النفس متفاوتة
 وجعل من حق كل واحدة ان تكون داخلة في سلطان مافوقها
 ومتأثرة على مادونها . فحق القوة الشهوانية ان تكون مؤثرة
 للقوة الغضبية . وحق القوة الغضبية ان تكون مؤثرة للقوة العاقلة
 وحق القوة العاقلة ان تكون مستضيئة بنور الشرع ومؤثرة لمراسمه
 حتى تصير هذه القوى متظاهرة غير متعادية كما قال الله تعالى :
 « ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ إخواناً على سُرُرٍ مُتقابلين » .
 وكما لا ينفك اشرار العالم من ان يطلبوا في العالم الفساد ويعادوا
 الاخيار كما قال تعالى : « وكذلك جعلنا في كل قرية اكابر
 مجرميها ليمكروا فيها » . وقال سبحانه : « وكذلك جعلنا لكل نبي
 عدواً شياطين الأانس والجن » . كذلك في نفس الانسان قوى
 رديئة من الهوى والشهوة والحسد تطلب الفساد وتعادي العقل
 والفكر . وكما انه يجب للموالي ان يتبع الحق ولا يصغي الى
 الاشرار ولا يعتمدهم كما قال تعالى : « يا ايها الذين امنوا لا تأخذوا
 بطانة من دونكم » . الآية . وقال تعالى : « يا ايها الذين آمنوا
 لا تأخذوا اليهود والنصارى اولياء » . وقال : « وان أحكم بينهم
 بما انزل الله ولا تتبع أهوائهم واحذرهم أن يفتنوك » .

كذلك يجب للعقل والفكر ان لا يعتمد القوى الذميمة .
 وكما انه يجب للوالي ان يجاهد اعداء المسلمين كما قال تعالى
 « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به
 عدو الله وعدوكم » . كذلك يجب للعقل ان يعادي الهوى فان الهوى
 من اعداء الله بدلالة قول النبي صلى الله عليه وسلم : ما في الارض
 معبود ابغض الى الله من الهوى ثم تلا أفرأيت من اتخذ الهه
 هواه . وكما ان من استحوذ عليه الشيطان انساه ذكر الله كذلك
 العقل اذا استحوذ عليه الهوى . وكما انه يجب للوالي ان يسلم
 اعدائه اذا لم يقو عليهم كما قال الله تعالى : « وان جنحوا للسلم فاجنح
 لها » وان لا يركن اليهم وان سلمهم كما قال الله تعالى : « ولا
 تركوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار » كذلك يجب للعقل ان يسلم
 الاشرار من قوى النفس اذا عجز عنها وان لا يركن اليها
 وكما ان الوالي اذا احس بقوة احتاج الى ان يعدل الى نقض
 العهد واطهار المعادة كما قال الله تعالى : « فاذا انسخت الاشهر
 الحرم فاقفوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم
 واقعدوا لهم كل مرصد » . كذلك حق العقل اذا قوي على قوى
 النفس ان لا يدهنها . وكما ان شياطين الانس والجن يضعف
 كيدهم على من تحصن بالايمان واستعاذ بالله وتقوى على من

والاه كما قال تعالى : « انما سلطناها على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » كذلك يضعف كيد الهوى عن العقل اذا تقوى بالله واستعاذ به . فحقُّ العقل ان يستعيد من الهوى والشهه والحرص والامل وان يطهر ذاته منها ومن سائر القوى الرديئة استعاذة ابراهيم صلوات الله عليه حيث قال : (رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني ان نعبد الاصنام) . فالقوى الرديئة والارادات الرديئة في ذات الانسان جارية مجرى اصنام قلَّ ما ينفك الانسان من عبادتها كما قال الله تعالى : « وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون » وذكروا مثلاً آخر فقالوا : كل انسان مع بدنه كوال في بلد قيل له طهر بلدك من النجاسات وادب من يقبل التأديب من اهله ورؤس من يقبل الرياضة من حيوانه وسباعه . ومن عاث^(١) فيه ولا يقبل التأديب والرياضة فاجبسه او اقله ولكن بالحق كما قال الله تعالى : « ولا تقنلوا النفس التي حرم الله الا بالحق » فان عجزت عن تطهير عرصته من الانجاس وعن تأديب طغاته ورياضة حيواناته وسباعه فلا تعجز عن صيانة نفسك عن التلخ بنجاساته وعن الاحتراس من ان تفتسك سباعه وان يسبك طغاته حتى اذا لم تكن غالباً لم تكن مغلوباً . فصار الناس في ذلك بين ثلاثة

(١) العيث الافساد

اصناف : صنف لم يفعل ما أمر ولم يؤد حق الإيالة وتهاون فيما
فوض اليه فخرج وأسر فصار عند نفسه مع كونه مجروحاً ما سوراً
ملوماً مخذولاً . وصنف فعل ما أمر فأدّى حق الإيالة فصار عند
ربه مأجوراً مشكوراً . وصنف جدّ تارة وقصّر تارة فخرج وجرح
وغلب وغلب فهو كما قال تعالى : (خلطوا عملاً صالحاً وآخر
سيئاً عسى الله ان يتوب عليهم) وقال بعضهم : الانسان اذا اعتبر
مع قوة التخيل وقوة الغضب وقوة الشهوة فمثله مثل من يلي في
سفره بصحبة ثلاثة اضطر اليهم حتى لا يمكنه ان ينفصل منهم
ويقضي سفره من دونهم كما قال الشاعر :

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى عدوّاً له ما من صدقته بد
فيا نكد الدنيا متى انت نازح عن الحرّ حتى لا يقاربه ضد
فواحدٌ أمامه هو له رقيب يحفظه وعين تكلاه لكنه ملق^(١)

باهت مموه يلفق الباطل تليقاً ويختلق الزور اختلاقاً فيخاطب
الكذب بالصدق والخطأ بالصواب . والثاني عن يمينه بطش زعر^(٢)
يحميه عن اعاديه لكنه كثيراً ما يغويه فيهبج هائجه فلا يقمعه
النصح ولا يطاقئه الرفق كأنه نار في حطب او سيل في صلب او
قرم^(٣) مغتلم^(٤) او سبع تاكل^(٤) فيحتاج ان يسكنه دائماً فيحتمي به

(١) الملق المعطي بالاسان ما ليس في القلب (٢) شرس (٣) القرم البعير

والمغتم الشديد الهياج . (٤) الثكل فقدان الحبيب او الولد

ومنه فهو معه كما قيل : راكب الأسد يهابه الناس وهو في نفسه
اهيب . والثالث عن يساره وهو الذي يأتيه بالمطعم والمشرب
لكنه ارعن^(١) ملق قَدْر شَبَقٍ^(٢) كانه خنزيراً جيع فأرسل في
جَلَّةٍ^(٣) يأتيه اجياناً بأظعمة خبيثة فيكرهه على تناولها فهو يحتاج ان
يصبرهم حتى يقطع سفره فيباغ ارضاً مقدسة يشرق فيها النور
ويشرب فيها الذئب والنعجة من حوض واحد فيأمن فيها بوائقهم
ومن حيلته التي ترجى ان يسلم منهم بها ان يساط هذا البطش
الزعر على هذا الارعن الملق حتى يزبره زبراً^(٤) وان يطفي غلوه هذا
الزعر التائه بخلافة هذا الارعن الملق وان لا ينجح الى الباهت
المتخرص حتى يؤتبه موثقاً من الله غليظاً ثم يصدقه فيما ينهيه
اليه فجعل الملق الباهت كناية عن الوهم والبطش الزعر عن الغضب
والارعن الملق عن الشهوة وجعل الارض المقدسة عبارة عن دار
السلم وذكر ان حيلته في ان يسلم منهم ان يدفع بعض هذه القوى
بعض دفع الشر بالشر



(١) الرعونة الحمقى . (٢) الشبق الشديد الغلظة والشهوة (٣) الجلة
بالفتح البعرة وتطلق على العذرة (٤) الزبر الزجر والانتبار

الباب العاشر

في كون الانسان هو المقصود من العالم
وإيجاد ما عداه لأجله

المقصود من العالم وإيجاده شيئاً بعد شيء هو ان يوجد
الانسان فالغرض من الاركان ان يحصل منها النبات ومن النبات
ان تحصل الحيوانات ومن الحيوانات ان تحصل الاجسام
البشرية ومن الاجسام البشرية ان يحصل منها الارواح الناطقة
ومن الارواح الناطقة ان يحصل منها خلافة الله تعالى في ارضه
فيتوصل بايحاء حقها الى النعيم الابدي كما دلّ الله تعالى عليه
بقوله: (اني جاعل في الارض خليفة) . وجعل تعالى الانسان
سلالة العالم وزبدته وهو المخصوص بالكرامة كما قال تعالى: (ولقد
كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات
وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) . وجعل ما سواه كالمعونة
له كما قال تعالى في معرض الامتنان: (هو الذي خلق لكم ما في
الارض جميعاً) . فليس فضله بقوة الجسم فالفيل والبعير اقوى
جسماً منه ولا بطول العمر فالنسر والحية اطول منه عمراً ولا بشدة
البطش فالاسد والنمر اشد منه بطشاً ولا بحسن اللباس فالطاووس

والدرّاج^(١) أحسن منه لباساً ولا بالقوة على النكاح فالخمار والعصفور
أقوى منه نكاحاً ولا بكثرة الذهب والفضة فالمعادن والجبال
أكثر منه ذهباً وفضةً وما أحسن قول الشاعر :

لولا العقول لكان أدنى ضيغ أدنى إلى شرف من الإنسان
وما تفاضلت النفوس ودبرت أيدي الحكمة عوالي المران

ولا بعنصره الموجود منه كما زعم إبليس حيث قال : (خلقتني
من نار وخلقته من طين) . بل ذلك بما خصه الله تعالى به وهو
المعنى الذي ضمنه فيه والأمر الذي رشح له وقد أشار إليه تعالى
بقوله : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين »
وبقوله : « خلقت يدي » . والملائكة لما نبههم الله تعالى لفضل
آدم تنبهوا فأذعنوا وسجدوا له كما أمروا . وإبليس لما نظر إلى ظاهر
آدم وبدئه وتعامى عما ذكر الله تعالى ولم يتأمل المعنى الذي ضمنه
الله تعالى آدم والعاقبة التي جعلها له أبى واستكبر . وقد اقتدى
به الكفار في ردّ الأنبياء حيث قالوا : « ما هذا إلا بشر مثلكم
يريد أن يتفضل عليكم » . وقالوا : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام
 ويمشي في الأسواق » . وقد نبه الله تعالى على أن الاعتبار بفضله
ليس بظاهر أبدانهم وإنما ذلك لمعاني في نفوسهم يعنى عنها الكفار

(١) الدرّاج بالضم والتشديد ضرب من الطير ذكرّا كان أو أنثى

فقال عزّ من قائل : « وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون » .
 اي لا يعرفون ما فضلتهم به . فمن وفق لفضل ما أُعطي ولما رُشِع
 له وأعدّ ثم سعى في مثاله فقد أُوتي خيراً كثيراً وما يذكّر
 الآ اولو الالباب

الباب الحادي عشر

في الغرض الذي لاجله اوجد الانسان ومنازلهم
 الغرض منه ان يعبد الله ويخلفه وينصره ويعمر ارضه كما نبه
 الله تعالى بآيات في مواضع مختلفة حسب ما اقتضت الحكمة ذكره
 وذلك قوله تعالى : « وما خلقت الجنّ والانس الا ليعبدون .
 وقوله : اني جاعل في الارض خليفة . وقوله : ليستخلفنهم في
 الارض . وقوله : ليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب . وقوله : يا ايها
 الذين آمنوا كونوا انصار الله . وقوله : واستعمركم فيها . وكل ذلك
 اشارة الى توليتهم اموراً لم يستصلح لها الا الانسان كما نبه الله تعالى
 عليه بقوله للملائكة : « اني اعلم ما لا تعلمون » . وذلك أنّ الله
 تعالى ما كان موجداً لما هو موجوده وفاعلاً لما هو فاعله الاعلى
 اربعة اوجه :

الاول افعال تولّاها بذاته وهي الابداع ومعنى الابداع

هو ايجاد الشيء من العدم واليه الاشارة بقوله تعالى : « بديع السموات والارض »

والثاني افعال استعبد فيها ملائكته وسماه قوم التكوينات وذلك اخراج الشيء من النقص الى الكمال اخراجاً غير محسوس فاعله وبذلك وصفهم الله تعالى بقوله : فالمدبرات امرأاً وهم ثلاثة اضرب ضرب اليهم القيام بالاجرام السماوية وقد قيل هم اسرافيل وميكائيل وجبرائيل ورضوان والمحتفون بالعرش الموصوفون بقوله تعالى : « وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين . وقوله تعالى : الذين يحملون العرش ومن حوله . الآية » . وضرب اليهم تدبير الاركان الهوائية كالملائكة الباعثة للرياح والمزجية للسحاب الموصوفين بقوله تعالى : والمرسلات عرفاً . وقوله عز وجل : والنازعات غرقاً . وضرب اليهم تدبير الارض كالموصوفين بقوله تعالى : « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من امر الله » . وكمن وصفه النبي صلى الله عليه وسلم في صفة الجنين انه يبعث ملكاً فينمخ فيه الروح وكالحفيظ والرقيب والعتيد وكمن وصفهم الله بقوله : « ان يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة الاف من الملائكة منزلين »

والثالث افعال سخر الله تعالى لها الاركان وموجودات العالم كالأحراق والاذابة للنار والترطيب للماء وفي الجملة ما قد سخر تعالى له شيئاً فشيئاً من الجمادات والناميات وغير ذلك ونبه عليه بقوله تعالى : « وسخر لكم الشمس والقمر » . وغير ذلك من الايات المذكورة

والرابع الصناعات والمهن المحسوسة التي استعبد الانسان فيها واستخلفه وهي الاشياء التي يحتاج صناعة اكثرها الى ستة اشياء الى عنصر تعمل منه والى مكان والى زمان والى حركة والى اعضاء والى آلة وهذا الضرب خص الانسان به ولم يستصلح له الملائكة وجعل لكل من الملائكة مقاماً معلوماً كما نبه عليه تعالى بقوله : « وما منا الا له مقام معلوم » . وكذلك جعل لكل نوع من الناس مقاماً معلوماً كما نبه عليه بقوله : « قل كل يعمل على شاكلته » وقوله : « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض » . وقول النبي صلى الله عليه وسلم كل ميسر لما خلق له . ولكن عامة الملائكة لم يعصوا الله فيما امرهم كما وصفهم تعالى بقوله : « لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون * » والناس فيما امروا به وكلفوه بين مطيع وعاص فهم على القول المجمل ثلاثة اضرب : ضرب اخلوا بامرهم وانسلخوا عما خلقوا لاجله واتبعوا خطوات الشيطان وعبدوا

الطاغوت . وضرب وقفوا^(١) بغيابة جهدهم حيث ما وقفوا كالموصوفين بقوله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً »
 وضرب ترددوا بين الطريقين كما قال الله تعالى : « خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً » فمن رجع حسناته على سيئاته فهو عود بالاحسان اليه . وعلى الانواع الثلاثة دل الله تعالى بقوله : (وكنتم ازواجاً ثلاثة فأصحاب المينة ما أصحاب المينة واصحاب المشمة ما أصحاب المشمة والسابقون السابقون اولئك المقربون) وعلى هذا قسم الله تعالى في آخر السورة فقال : (فأما إن كان من المقربين فروحٌ وريحانٌ وجنة نعيمٍ وأما إن كان من اصحاب اليمين فسلامٌ لك من اصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزلٌ من حميمٍ وتصلية حميمٍ) . وكثيرٌ من الناس يعصون الله ولا يأتون له فقيضهم الله تعالى بغير ارادة منهم للسعي في نصرته من حيث لا يشعرون كفرعون في اخذ موسى وتربيته . وجمعه السحرة ليكون سبباً في ايمانهم . واخوة يوسف في فعلهم ما افضى به الى ملك مصر وتمكنه مما تمكن منه ويكون مثلهم في ذلك كما قيل :

قصدت مساتي فاجتلبت مسرتي

وقد يحسن الانسان من حيث لا يدري

وقال آخر :

فعل الجميل ولم يكن من قصده فقبلته وقرنته بذنوبه
 وربّ فعل جاءني من فاعل فحمدته وذمته من يأتي به

فيكون فعله محموداً وفاعله مذموماً كما قيل :

رُبَّ امرٍ اناك لا تحمد الـ فمُعَال وتحمد الافعالا

وقد اوجد الله تعالى كل ما في العالم للانسان كما نبه عليه بقوله تعالى : « جعل لكم الارض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم » . وقال تعالى : (وسخر لكم ما في السموات وما في الارض . . . الآية) . وقال عز وجل : « وسخر لكم ما في الارض » . وقول تعالى : « هو الذي انزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لايات لقوم يتفكرون وسخر لكم الليل والنهار . . . الآية » . وابع جميعها لهم كما نبه الله تعالى عليه بقوله : « قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق » . فللانسان ان ينتفع بكل ما في العالم على وجهه اما في غذائه او في دوائه او في ملابسه ومشموماته ومركوباته وزينته والالتذاذ بصورته او رؤيته والاعتبار

به وباستفادة علم منه والاقضاء بفعله فيما يستحسن منه والاجتناب عنه فيما يستقبح منه فقد نبه الله تعالى على منافع جميع الموجودات واطلع الخلائق عليها اما باللسنة الانبياء عليهم السلام او بالهام الاولياء رضي الله عنهم وكما أنَّ حق الانسان ان يعرف منافع الحيوانات في ذواتها فينتفع بها في المطاعم والملابس والادوية فحقه ان يعرف اخلاقها وافعالها فينتفع بها في اجتناء ما يستحسن واجتناب ما يستقبح منها . فقد احسن من قال : تعلمتُ من كل شيء احسن ما فيه حتى من الكلب حمايته على اهله . ومن الغراب بكوره في حاجته . وقد اشار الله تعالى الى ذلك في وصف النحل فقال : « وأوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات . . . الآية » فنبه على ان الانسان حقه ان يقندي بالنحل في مراعاته لوحى الله عز وجل فكما انها لا تتخطى وحي الله في تحري المصالح طبعاً كذلك يجب على الانسان ان لا يتخطى وحي الله اختياراً



الباب الثاني عشر

في تفاوت الناس واختلافهم

الأشياء كلها متساوية غير متفاوتة من حيث انها مصنوعة بالحكمة وعلى ذلك نبه الله تعالى بقوله: « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » . ومختلفة من حيث ان كل نوع يختص بفائدة وكل نوع وان اختلف فما من شيء اكثر اخلافا من الناس كما قال الله تعالى: « وقد خلقكم اطوارا . وقال تعالى: ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات . وقال سبحانه وتعالى: انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات واكبر تفضيلا . وقال سبحانه: ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم فيما اتاكم . وقال تعالى: ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة . الآية . وقال تعالى: وهو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما اتاكم . وقال سبحانه: ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك . وعلى هذا نبه الله تعالى بقوله: وفي الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع الى قوله ان في ذلك لايات لقوم يعقلون » . والحكمة المقضية لذلك هو ان الانسان لما كان

غير مكفي بتفرده حتى لو ان انساناً حصل وحده لامتنع او تعذر
بقاؤه اذنى مدة فان اول ما يحتاج الانسان اليه ما يواريه وما يغذوه^(١)
وليس يجد ما يواريه مصنوعاً ولا ما يغذوه مطبوخاً كما يكون
لكثير من الحيوانات بل هو مضطر الى اصلاحها واصلاح ذلك
يوجه الى الآلات غير مفروغ منها والانسان الواحد لا توصل له الى
اعداد جميع ما يحتاج اليه ليعيش العيشة الحميدة فلم يكن بدُّ الناس
من تشارك وتعاون يجعل لكل قوم صنعة وهيئة مفارقة للصنعة
الأخرى ليقسموا الصناعات بينهم فيتولى كلُّ منهم صنفاً من
الصناعات فيتعاطاه باهتزاز كما قال الله تعالى : « فنقطعوا امرهم
بينهم زُبراً كلُّ حزب بما لديهم فرحون » . فاقنضت الحكمة ان
تختلف جنسهم وقواهم وهممهم فيكون كلُّ ميسر لما خلق له . وقال
تعالى : « كلُّ عملٍ على شاكلته » . فتكون معاشيتهم مقسمة
بينهم كما نبه الله عليه بالآيات المقدمة . وقال تعالى : « ولو شاء
ربك لجعل الناس أمةً واحدةً ولا يزالون مختلفين الا من رحم
ربك » . والاختلاف الحاصل بين الناس اذا اعتبر اختلاف
اغراضهم وهممهم فهم في صناعاتهم في حكم المسخرين وان كانوا

(١) يقال عدوت الصبي باللبن من باب عدا اي ربيته ولا يقال
غذيته بالياء مخففاً ويقال غذيته مشدداً

في الظاهر مختارين . وقد اشار النبي صلى الله عليه وسلم الى ما يتعلق
من المصلحة بقبائليهم واختلاف طبقاتهم فقال : لا يزال الناس بخير
ما تباينوا فاذا تساوا هلكوا

الباب الثالث عشر

في سبب تفاوت الناس

اسباب ذلك سبعة اشياء الاول اختلاف الأمزجة وتفاوت
الطينة واختلاف الخلقة كما اشير اليه فيما روي ان الله تعالى لما
اراد خلق آدم عليه السلام امر ان يؤخذ من كل ارض قبضة
فجاء بنو آدم على قدر طينتها الاحمر والايض والاسود والسهل
والحزن والطيب والخبيث والى نحو هذا اشار الله تعالى بقوله :
« والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج الا
نكدا » . وقال تعالى : « هو الذي يصوركم في الارحام كيف
يشاء » * والثاني اختلاف احوال الوالدين في الصلاح والفساد
وذلك ان الانسان قد يرث من ابويه آثار ما هما عليه من جميل
السيرة والخلق وقبيحهما كما يرث مشابتهما في خلقهما ولهذا قال
الله تعالى : « وكان ابوها صالحا » . وعلى نحوه روي انه قال التوراة :
إني اذا رضيت باركت وإني اذ بركتي لتبلغ البطن السابع واذا

سَخِطْتُ لَعْنَتُ وَإِنْ لَعْنَتِي لَتَبْلُغُ الْبَطْنَ السَّابِعَ تَبْيِهَا عَلَى أَنْ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ
الَّذِي يَكْسِبُهُ الْإِنْسَانُ وَيَتَخَلَّقُ بِهِ بَقِي أَثَرُهُ مُورِثًا إِلَى الْبَطْنِ السَّابِعِ *
وَالثَّلَاثُ اخْتِلَافٌ مَا تَكُونُ مِنْهُ النُّطْفَةُ الَّتِي يَكُونُ مِنْهَا الْوَلَدُ وَدَمُ
الطَّمْثِ الَّذِي يَتَرَبَّى بِهِ الْوَلَدُ فَذَلِكَ لَهُ تَأْثِيرٌ بِحَسَبِ طَيْبِ مَا تَكُونُ
مِنْهُ وَخَبَثِهِ وَلِهَذَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَخَيَّرُوا النُّطْفَةَ . وَقَالَ :
النَّاسُ كَحَارِسٍ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ إِيْنَ يَضَعُ غُرْسَهُ . وَقَالَ : أَيَاكُمْ وَخَضِرَاءُ
الدِّمَنِ قِيلَ وَمَا خَضِرَاءُ الدِّمَنِ قَالَ الْمَرْأَةُ الْحَسَنَاءُ فِي الْمَنْبَتِ
السُّوِّءِ * وَالرَّابِعُ اخْتِلَافٌ مَا يَتَفَقَدُ بِهِ مِنَ الرُّضَاعِ وَمَنْ طَيْبَ الْمَطْعَمَ
الَّذِي يَتَرَبَّى بِهِ وَلِتَأْثِيرُ الرُّضَاعِ يَقُولُ الْعَرَبُ مَنْ تَصَفَّهُ بِالْفَضْلِ :
لَهُ دَرَّةٌ * وَالْخَامِسُ اخْتِلَافٌ أَحْوَالِهِمْ فِي تَأْدِيبِهِمْ وَتَقْيِينِهِمْ وَطَبْيِعِهِمْ
وَتَعْوِيدِهِمْ الْعَادَاتِ الْحَسَنَةَ وَالْقَبِيحَةَ فَحَقُّ الْوَلَدِ عَلَى الْوَالِدَيْنِ أَنْ
يُؤْخَذَ بِالْآدَابِ الشَّرْعِيَّةِ وَأَخْطَارِ الْحَقِّ بِآلِهِ وَتَعْوِيدُهُ فِعْلَ الْخَيْرِ
كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَرُومٌ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعٍ وَأَضْرَبُوهُمْ
لِعَشْرٍ . وَيَجِبُ أَنْ يُصَانَ عَنِ مَجَالَسَةِ الْأَرْدِيَاءِ فَانَّهُ فِي حَالِ صَبَاهِ
كَالشَّمْعِ يَتَشَكَّلُ بِكُلِّ شَكْلٍ يُشَكَّلُ بِهِ وَأَنْ يُحْسَنَ فِي عَيْنِهِ الْمَدْحُ
وَالْكَرَامَةُ وَيَقْبَحُ عِنْدَهُ الذَّمُّ وَالْمُهَانَةُ وَيَبْغِضُ إِلَيْهِ الْحَرَصَ عَلَى الْمَأْكَلِ
وَالْمَشَارِبِ وَيَعُودُ الْاِقْتِنَادَ فِي تَنَاوُلِهَا وَمُخَالَفَةَ الشَّهْوَةِ وَمُجَانِبَةَ ذَوِي
السُّخْفِ وَيُؤْخَذُ بِقَلَّةِ النَّوْمِ فِي النَّهَارِ فَهُوَ يَشِيبُ وَيُورِثُ الْكَسْلَ

ويعود التآني في افعاله واقواله وينم عن مفاخرة الاقران ومن
الضرب والشتم والعبث والاستكثار من الذهب والفضة ويعود
صلة الرحم وحسن تأدية فروض الشرع . قال بعض الحكماء : من
سعادة الانسان ان يتفق له في صباه من يعود تعاطي الشريعة
حتى اذا بلغ الحلم وعرف وجوبها فوجدها مطابقة لما تعوده قويت
بصيرته ونفذت في تعاطيها عزمته * والسادس اختلاف من
يتخصص به ويخالطه فيأخذ طريقته فيما يتمذهب به (عن المرء
لا تسأل وابصر قرينه) * والسابع اختلاف اجتهاده في تزكية
نفسه بالعلم والعمل حين استقلاله بنفسه . والفاضل التام الفضيلة
من اجتمعت له هذه الأسباب المسعدة وهو ان يكون طيب
الطينة معتدل الامزجة جارياً في اصلا بآباء صالحين ذوي
امانة واستقامة متكوناً من نطفة طيبة ومن دم طمّ طيب على مقنض
الشرع ومرتضماً بدرّ طيب وما خوذاً في صغره من قبل مربيه
بالاداب الصالحة وبالصيانة عن مصاحبة الاشرار ومتمحصاً بعد
بلوغه بمذهب حق ومجهداً نفسه في تعرف الحق مسارعاً الى الخير
فمن وفق في هذه الأشياء تنجع فيه الخيرات من جميع الجهات
كما قال الله تعالى : « لا تكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم » .
ويكون جديراً ان يعد من وصفه الله تعالى بقوله : « وانهم عندنا

لمن المصطفين الاخيار» . والرذل التام الرذيلة هو من يكون
 بعكس هذا في الامور التي ذكرناها * واعلم ان من طابت احواله
 انتفع بكل ماسمعه وشاهده ان خيراً وان شراً ومن خبثت احواله
 استضر بكل ماسمعه وشاهده وعلى ذلك دلّ الله تعالى بقوله :
 « والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج الا
 نكداً » . فالخيث من الارض وان طاب بذره وعذب ماؤه
 لا ينبت الا خيبثاً والطيب من الارض وان كدر بذره وملح
 ماؤه لا ينبت الا طيباً ولذلك قال سبحانه وتعالى في كتابه :
 « تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل » . وقال
 في صفة كتابه : قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين
 لا يؤمنون في آذانهم وقرء وهو عليهم عمى »

الباب الرابع عشر

في بيان الشجرة النبوية وفضلها على جوهر سائر البرية
 اقتضت الحكمة ان تكون الشجرة النبوية صنفاً مفرداً ونوعاً
 واحداً واقعاً بين الانسان وبين الملك ومشاركاً لكل واحد منهما
 على وجه فانهم كالملائكة في اطلاعهم على ملكوت السماوات
 والارض وكالبشر في احوال المطعم والمشرب . ومثله في كونه

واقعاً بين نوعين مثل المرجان فانه حجر يشبه الأشجار بتشذب^(١)
اغصانه وكالنخل فانه شجر شبيه بالحيوان في كونه محتاجاً الى
التلقيح وبطلانه اذا قطع رأسه . وجعل الله النبوة في ولد ابراهيم
ومن قبله في نوح كما نبه عليه بقوله : « ولقد ارسلنا نوحاً وابراهيم
وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب . وقال تعالى : ذرية بعضها من
بعض » . فهم عليهم السلام وان كانوا من حيث الصورة كالبشر
فهم من حيث الارواح كالملاك قداً يدوا بقوة روحانيةٍ وخُصوا بها
كما قال الله تعالى في عيسى عليه السلام : « وايدناه بروح القدس »
وقال في محمد صلى الله عليه وسلم : « نزل به الروح الامين على قلبك
لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » . وتخصيصهم بهذا الروح
ليمكنهم ان يقبلوا من الملائكة لما بينهم من المناسبة بتلك الارواح
ويلقون الى الناس لما بينهم من المناسبة البشرية لذلك قال سبحانه :
« ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون » . تنبيهها
على ان ليس في قوة عامة البشر الذين لم يخصصوا بذلك الروح ان
يقبلوا الاً من البشر . ولما عمي الكفار عن ادراك هذه المنزلة وعمّا
للأنبياء من الفضيلة انكروا نبوة الأنبياء كما قال الله تعالى :
« قالوا ان انتم الا بشرٌ مثلنا تريدون ان تصدونا عما كان يعبد آباءنا

فأتونا بسافطان ميين» . فالأَنْبياء صلوات الله عليهم بالاضافة الى سائر الناس كالانسان بالاضافة الى الحيوانات وكالقلب بالاضافة الى سائر الجوارح وايضاً فمنزلة الانبياء من أهمهم بمنزلة الشمس من القمر ومنزلة علمهم من علوم أهمهم بمنزلة ضوء الشمس من نور القمر كما قال الله تعالى : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً » . فكما ان نور القمر مقتبس من ضوء الشمس وهو قاصر عنها كذلك منزلة الأمم من انبيائهم ومنزلة علمهم من علومهم . وكما لا يحصل النور للقمر الاً بوساطة الشمس كذلك لا تحصل علوم الناس وتزكية نفوسهم الاً بوساطة الانبياء وعلى هذا دل الله تعالى بقوله : « ربنا وبعث فيهم رسولاً منهم يتلوه عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم » . فالله تبارك وتعالى يزكي الأنبياء بوساطة الملك ويزكي من يشاء من الناس بوساطة الأنبياء كالطابع الذي جعل له كتابة ثم بوساطته يثبت في الشموع المختلفة شكل تلك الكتابة



الباب الخامس عشر

في هداية الاشياء الى مصالحها

كل ما اوجده الله سبحانه فانه هداة لما فيه مصلحته كما نبه عليه بقوله تعالى : « اعطى كل شيء خلقه ثم هدى » . لكن هدايته للجمادات بالتسخير فقط كالاشياء الارضية التي اذا تركت نحو نحو السفلى وكالنار التي نحو الى العلو . وهدايته للحيوانات الى افعال تغطاها بالتسخير والالهام كالنحل فيما يتعاطى من السياسة واتخاذ البيوت المسدسة ومن عمل العسل . وكالسرف^(١) فيما تبنيه من الابنية . وكالعنكبوت في نسجه . وهدايته للملائكة بالتسخير والالهام وبيداهة العقل وما جعل لها من العلوم الضرورية فاما الانسان فهدايته له تعالى بكل ذلك وبالفكر . وذلك انه بالتسخير بنفسه وكثير من حركاته وبالالهام هدايته طفلا للارتضاع بالثدي وطلب الغذاء والتشكي من الامم بالبكاء وببيداهة العقل يعرف مباني العلوم وبالفكر يتوصل الى استنباط المجهول

(١) السرفة بالضم دويبة^٢ تتخذ بيتاً من دقاق العيدان فتدخله وتموت ومنه المثل (اصنع من سرفة) . وسرفت السرفة الشجرة اكلت ورقها ومنه السرف الذي هو الحد في النفقة

بالمعلوم فهو ان خلق عارياً من المعارف التي جعلها الله تعالى
 للحيوانات بالالهام ومن الملابس والاسلحة التي جعلها لها بالتسخير
 فقد جعل للانسان قوة التعلم بالعقل والفكر وتحصيل الملابس
 والاسلحة والالات المختلفة ووكله الى نفسه من الاستفادة ومكّنه
 من ذلك وذلك فضيلة لانتقيصة ورفعة لاضعة فانه باعطائه العلم
 والعقل واليد العاملة قد اعطاه كل شيء ولو اعطي كل شيء حسب
 ما اعطي البهائم شيئاً فشيئاً لكان قد منع كل شيء لان بعضه
 كان يمنعه عن استعمال البعض والى تمكن الانسان من تحصيل
 ما يريد اشار الله تعالى بقوله : « والله اخرجكم من بطون امهاتكم
 لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافتدة لعلكم تشكرون »
 وقد ظن قوم ان الله تعالى خلق الناس من بين الحيوان خلقاً
 منقوصاً اذ لم يعطوا سلاحاً يدفعون به عن انفسهم كما اعطى
 كثيراً من الحيوان اسلحة كالانياب والمخالب اذ لم يكفهم لباسهم
 كما كفى الحيوان بل قد احوجهم الى تطهير البدن وقد اغناها
 عنه قالوا ولذلك قال الله تعالى : « وخلق الانسان ضعيفا » .
 وليس كذلك والصحيح عند المخلصين ان الانسان وان كان
 ضعيفاً بالاضافة الى البارئ تعالى والى الملا الاعلى فليس يقصر
 عن الحيوان جميعه من جهة ماظنوه فان الله تعالى بحكمته البارعة

اعطى كل واحد من الحيوان سلاحا بقدر ما علم من مصلحته
بعض جعل له آلة الحرب كالعدو وبعض جعل له رمحا يدفع به
كالقرون للبقرة والغنم وبعض دبوساً كالحافر للفرس والحمار وبعض
نشاباً كالشوك للقنفذ وجعل لكل لباساً بحسب كفايته
والهم كلاً منها صنعة يتعاطاها بطبعه وجعل للانسان بدل ذلك
الفكر والتميز الذي يمكنه ان يتخذ به كل آلة وكل ملبس على قدر
حاجته اليه ويتناوله متى شاء ويضعه متى احب ويستبدل به كيفما
اراد والحيوانات ليس لها ان تضع اسلحتها متى ما استغنت عنها ولا
ان تستبدل بها فهذا دليل على تمام الانسان ونقصان الحيوانات
والانسان بالفكر والروية يقهر الحيوانات التي هي اقوى منه لانه
يهيء بفكرته لكل منها آلة يصطادها بها فاداً العقل الذي اعطاه
ليحصل به كل ما يحتاج اليه اعلى واشرف فانه مرآة اذا جلاها اطلع
بها على ملكوت السموات والارض



الباب السادس عشر

في سعادة الانسان ونزوعه اليها

قال بعض الحكماء : جعل الله لكل شيء كمالاً ينساق اليه طبعاً وقد هداه الى التخصيص به تسخييراً كما نبه الله عليه بقوله تعالى : « اعطى كل شيء خلقه ثم هدى » . وللانسان سعادات ابيحت له وهي النعم المذكورة في قوله تعالى : « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » وجميع النعم والسعادات على القول المجمل ضربان ضرب دائم لا يبيد ولا يحول وهو النعم الأخروية . وضرب بييد ويحول وهو النعم الدنيوية . والنعم الدنيوية متى لم توصلنا الى تلك السعادات فهي كسراب بقية وغرور وفتنة وعذاب كما وصفه الله تعالى في كتابه : « انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء . الآية » . وما صدق ما قال الشاعر :

انما الدنيا كرويا افروحت من رآها ساعة ثم انقضت

فصل

ما احد الا وهو فازع الى سعادة يطلبها بجهد ولكن كثيرا ما يخطيء فيظن ما ليس بسعادة في ذاته انه سعادة فيغتر بها فيكون كالموصوف بقول الله تعالى : « والذين كفروا اعمالهم كسراب

بقیعة یحسبه الظمان ماءً حتی اذا جاءه لم یجده شیئاً» . وبقوله
 تعالی : «اعمالهم کرم ما دأستدت به الريح فی يوم عاصف لا یقدرون
 مما کسبوا علی شیء» وقال الشاعر :

کلٌّ یحاول حيلة یرجو بها دفع المضرة واجتلاب المنفعة
 والمرء یغلط فی تصرف حاله فلربما اختار العناء علی الدعة

فصل

النعم الدنیویة انما تكون نعمة وسعادة متی تنوأت علی ما
 یجب وکما یجب ویجری بها علی الوجه الذی لأجله خُلق وذلك
 ان الله جعل الدنیا عاریة لیتناول منها قدر ما یتوصل به الی النعم
 الدائمة والسعادة الحقیقیة . وشرع لنا فی کل منها حکماً ین فیهِ
 کیف یجب ان یتناول ویتصرف فیها لکن صار الناس فی تناولها
 فریقین فریق یتناولوه علی الوجه الذی جعله الله لهم فانتفعوا به
 فصار ذلك لهم نعمة وسعادة وهم الموصوفون بقوله تعالی : «الذین
 ان مکناهم فی الارض اقاموا الصلاة واتوا الزکاة وامروا بالمعروف
 ونهوا عن المنکر والله عاقبة الامور . وقوله عزوجل : للذین
 احسنوا فی هذه الدنیا حسنة ولدنار الآخرة خیر ولنعم دار المتقین
 وقوله تعالی : والذین هاجروا فی الله من بعد ما ظلموا لنبوانهم فی
 فی الدنیا حسنة» . فهو لاء حیوا بها حیاة طيبة كما قال تعالی :
 (فلنخبینہ حیاة طيبة) * وفریق یتناولوها لالی الوجه الذی

جعلها الله لهم فركنوا اليها فصار ذلك لهم نقمة وشقاوة فتعذبوا بها عاجلاً وآجلاً وهم الموصوفون بقوله تعالى: (انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق انفسهم وهم كفرون)

فصل

والسعادات الأخروية ليس لنا تصوّر كنهها مادنا في دار الدنيا ولذلك قال تعالى: (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة اعين) . وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه تعالى: اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر* والسبب في قصورنا عن تصورها شيئان: احدهما ان الانسان لا يمكن ان يعرف حقيقة الشيء وتصوره حتى يدركه بنفسه واذا لم يدركه ووصف له يجري مجرى صبي توصف له لذة الجماع فلا يمكن ان يتصور حقيقته حتى يبلغ فيباشره بنفسه وكالاً كما توصف له المرأة وحالتها في اللذة الاخروية هكذا فانا لا نتصورها على الحقيقة الا اذا طالعناها فاذا طالعناها شغلنا الفرح والتلذذ بها عن كل مادونها كما قال تعالى: « اصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون »* والثاني ان لكل قوة من قوى النفس وجزء من اجزاء البدن لذة تختص بها لا يشاركها فيها غيرها فلذة العين في النظر الى ما تستحسنه ولذة السمع في الاستماع الى ما يستطيعه

ولذة اللس في لمس ما يستلذه ولذة الوهم في تصور ما يؤمله ولذة
 الخيال في تخيل ما يستحسن تصوره ولذة الفكر في امر مجهول عنده
 يتعرفه وكل واحد من هذه القوى والاجزاء اذا عرض لها آفة
 تعوقها عن شهوتها وعن ادراك لذتها يكون كالمرضى الذي
 لا يشتهي الماء وكان به ظمأً واذا تناوله لم يجد له لذة كما قال الشاعر:

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرًا به الماء الزلالا

واذا كان كذلك فاللذات الاخرية هي لذات لا تدرك
 الا بالعقل المحض وعقول اكثر من في هذه الدار موهلة معوقة عن
 ادراك حقائق اللذات الاخرية فلا تشعر بها كالحدير^(١) لآفة
 عرضت له فلا يحس بالسبب المؤلم . وكالمرضى الذي لا يحس
 بالجوع وان كان جوعه يؤذيه ولا يشتهي الطعام ان كان فقد
 الطعام يرضيه بل انما يحس بالجوع اذا زال السبب المؤلم . وايضاً
 فعقول اكثرنا ناقصة وجارية مجرى عقول الصبيان الذين لم يبلغوا
 مبلغ رجال قد عرفوا حقائق الاشياء فكما ان الصبيان ما داموا
 صغاراً لا يحسون باللذات والآلام التي تعرض للرجال فيتعللون
 بالباطيل والاضاليل كذلك من كان في عقله صبياً لم يطالع على
 الحقائق وبالاختبار بهم قال الله تعالى : « وما هذه الحياة الدنيا

(١) خدر العضو استرخى فلا يطبق الحركة

الألهو ولعب . وقال تعالى : فلا تغربنكم الحياة الدنيا ولا يغربنكم
 بالله الغرور « ولما اراد الله تعالى ان يقرب معرفة تلك اللذات من
 افهام الكافة شبهها ومثلها لهم بانواع ما تدر كها حواسهم فقال تعالى :
 « مثل الجنة التي وعد المنقون فيها انهار من ماء غير آسن وانهار
 من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين وانهار من عسل
 مصفى » . ليعين للكافة طيبها بما عرفوه من طيب المطاعم وقال :
 « مثل الجنة التي وعد المنقون » . ولم يقل الجنة لئنه الخاصة على
 ان ذلك تصوير وتمثيل فالانسان وان اجتهد ما اجتهد ان يطلع
 على تلك السعادة فلا سبيل له اليها الا على احد وجهين احدهما
 ان يفارق هذا الهيكل ويخلف وراءه هذا المنزل فيطلع على ذلك
 كما قال الله تعالى : « يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً
 ايمانها لم تكن آمنت من قبل او كسبت في ايمانها خيراً قل انتظروا
 انا منتظرون » . والثاني ان يزيل قبل مفارقة الهيكل الامراض
 النفسانية المشار اليها بقوله تعالى : « في قلوبهم مرض فزادهم الله
 مرضاً » وارجاسها المشار اليها بقوله تعالى : « انما يريد الله ليذهب
 عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً » فيطلع من وراء ستر
 رقيق على بعض ما أعد له كما حكي عن حارثة حيث قال للنبي

صلى الله عليه وسلم عَزَفَتْ^(١) نفسي من الدنيا فكأنني انظر الى
 عرش زبي بارزاً واطلع على اهل الجنة يتزاورون وعلى اهل
 النار يتعاوون فقال له النبي صلى الله عليه وسلم عرفتَ فالزم .
 وقال امير المؤمنين علي عليه السلام : لو كُشِفَ العِطَاءُ ما زددت
 يقيناً

الباب السابع عشر

في حال الانسان في دنياه وما يحتاج ان يتزود منها
 الانسان مسافر ومبدأ سفره من حيث ما اشار اليه تعالى
 بقوله : «وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌ ولكم في الارض مستنقر
 ومتاع الى حين» . وحيث قال في صفة نبيه : «واذا اخذ ربك
 من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على انفسهم أَلَسْتُ
 بربكم قالوا بلى» . ومنتهى سفره دار السلام ودار القرار . وله
 في سفره اربعة منازل ظهر ابيه وبطن امه وظهر الارض والموقف
 وله حالتان حالة هو فيها مسنودع وهو ما دام في هذه المنازل
 وحالة هو فيها مستنقرٌ وهو اذا حصل في دار القرار والى ذلك
 اشار الله تعالى بقوله : «وهو الذي انشأكم من نفس واحدة

(١) عَزَفَتْ عن الشيء انصرف عنه

فمستقر ومستودع» . والمنزل الذي فيه يحتاج الى تزودٍ ظهرُ
الارض فالانسان في كدح وكبد^(١) ما لم ينته الى دار القرار كما
قال الله تعالى : « يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً
فلاقيه » . وقال تعالى : « لقد خلقنا الانسان في كبد » . وهو
مجبول على طلب الراحة لكن الناس في طلبها على ضرين ضرب
عموا عن الآخرة وقالوا : « ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا »
او فعلوا فعل من قال ذلك وان لم يقولوا قولهم فطلبوا الراحة من
حيث لا راحة وهم كالموصوفين بقوله عز وجل : « والذين كفروا
اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده
شيئاً » . وقوله : « انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء
فاختلط به نبات الارض . . . » الآية . فانهم طلبوا من الدنيا
ما ليس في طبيعتها ولا موجوداً فيها ولها . وما احسن قول الشاعر :
اريد من زمي ذي ان يبلغي ما ليس يبلغه في نفسه الزمن
وقال آخر :

مضى قبلنا قوم رجوا ان يقوموا بلا تعب عيشاً فلم ينقوم
وضرب عرفو الدنيا والآخرة وعلوا ان الدنيا كما قال الله
تعالى : « ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين وان الدار الآخرة

(١) الكدح العمل والكبد الشدة وكابد الامر قاسى شدته

لهي الحيوان» . وعلّموا ان فيها يستقر الانسان ويطمئن كما قال الله تعالى : « يا ايها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية » .
وانه يحتاج الى ان يسافر اليها كما قال عليه السلام : سافروا تغمّوا .
فاحتملوا المشقة علماً ان كل تعب يؤدّيهم الى راحة فهو راحة فسعدوا كما قال الله تعالى : « فاما الذين سعدوا ففي الجنة » .
وقد جعل للانسان حرتين مفيدتين لزيدين احدهما روحاني كالمعارف والحكم والعبادات والاخلاق الحميدة وثمرته الحياة الابدية والغنى الدائم والاستكثار منه محمود ولا يكاد يطلبه الا من قد عرفه وعرف منفعته . والثاني جسماني كالمال والاثاث وفي الجملة ما قد نبه الله تعالى عليه بقوله : « زين للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحراث » . وثمرته ان تحصل به الحياة الدنيوية الفانية ويسترجع من الانسان اذا فارق دنياه ولا ينتفع منه بشيء الا بقدر ما استعان به في الوصول الى الزاد الاخروي كما نبه الله تعالى عليه بقوله : « وما الحياة الدنيا في الآخرة الا متاع » . ولا يولع بالركون اليها الا من جهل حقائقها ومنافعها . والاستكثار منه ليس بمذموم ما لم يكن مشبهاً لصاحبه عن مقصده وكان متاولاً على الوجه الذي يجب وكما يجب

ومجوعاً الى الوجه الذي ينتفع به في مقصده لكن تناوله على هذا الوجه والاستكثار منه لا يتأتى الا اذا كان السلطان عادلاً والامور جارية على اذلالها^(١) فيحفظ الناس معاملاتهم على مقتضى الشرع ثم يكون صاحبه اذا تناوله كما قال تعالى: «ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة». فاذا لم يكن الامر كما ذكرنا من الاستقامة فليس الا الاقتصاد والاقنصار والتبليغ بما امكن حتى ينقضي السفر والموفق في الدنيا اذا رأى نفسه قاصرة عن الجمع بين الامرين اهتم بما بقى واقل العناية بما يفنى وآثر الآخرة على الدنيا فلا يلتفت الى الدنيا الا بقدر ما يتبلغ به الى الآخرة مراعيًا فيه حكم الشرع ومحافظاً لقول الله عز وجل: «يا ايها الناس ان وعد الله حق» فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور» وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ما انا والدنيا انما مثلي فيها مثل راكب سار في يوم صائف فرفعت له شجرة فنزل فقام في ظلها ساعة ثم راح وتركها. وقد نبه الله تعالى على حال من يريد ان يتجرد ويتخلص من حباله^(٢) الدنيا على سبيل المثل بقوله: (ان الله مبتليكم بنهر

(١) يقال امور الله جارية على اذلالها اي مجاريها جمع ذل بالكسر

(٢) الحباله ككتابة المصيدة

فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني الا من اغترف
 غرفة بيده . ومجبة الدنيا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم رأس
 كل خطيئة . وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم : من سكن قلبه
 حبُّ الدنيا بُي بثلاثة شغل لا يبلغ مَداه وفقر لا يبلغ غناه
 وامل لا يبلغ منتهاه . وقال صلى الله عليه وسلم : من كانت الدنيا
 اكبرهمه فرَّق الله تعالى عليه همته وجعل فقره بين عينيه ولم
 يأتِه من الدنيا الا ما كتب له ومن كانت الآخرة اكبرهمه جمع
 الله تعالى شمله وجعل غناه في قلبه واثته الدنيا وهي راغمة وهذا
 معنى قوله عز وجل : (من كان يريد حرث الآخرة نزد له في
 حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤثته منها وما له في الآخرة من
 نصيب) ومعرفة ذلك والوصول اليه لا يمكن الا ان يستضيء
 العقل بنور الشرع معتمداً على من له الخلق والأمر

الباب الثامن عشر

في تظاهر العقل والشرع وافئثار احدهما الى الآخر
 اعلم ان العقل لن يهتدي الا بالشرع والشرع لا يتبين الا
 بالعقل فالعقل كالأس والشرع كالبناء ولن يغني اسٌ . ما لم يكن
 بناءً ولن يثبت بناءٌ ما لم يكن اسٌ . وايضاً فالعقل كالبصر والشرع

كالشعاع ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر ولهذا قال الله تعالى : « قد جاءكم من الله نورٌ وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه » . وايضاً فالعقل كالسراج والشرع كالزيت الذي يمدده فان لم يكن زيت لم يحصل السراج وما لم يكن سراج لم يضيء الزيت قال الله تعالى : « الله نور السموات والارض مثل نوره كشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نورٌ على نور يهدي الله لنوره من يشاء » . والله هو الهادي . وايضاً فالشرع عقل من خارج والعقل شرع من داخل وهما متعاضان بل متحدان ولكون الشرع عقلاً من خارج سلب الله تعالى اسم العقل من الكافر في غير موضع من القرآن نحو قوله : « صمٌ بكم عمي فهم لا يعقلون » . ولكون العقل شرعاً من داخل قال في وصف العقل : « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » . فسمى العقل ديناً . ولكونهما متحدين قال (نورٌ على نور) اي نور الشرع ونور العقل ثم قال : « يهدي الله لنوره من يشاء » . فجعلهما نوراً واحداً فالشرع اذا فقد العقل عجز عن

اکثر الأُمور عجزَ العین عند فقد الشعاع
واعلم ان العقل بنفسه قليل الفناء^(١) لا یکاد يتوصل إلاَّ
الی معرفة کلیات الأشياء دون جزئیاتها نحو ان يعلم
جملة حسن اعتقاد الحق وقول الصدق وتعاطي الجمیل وحسن
استعمال العدالة وملازمة العفة ونحو ذلك من غیر ان يعرف
ذلك في شيء شيءٍ والشرع يعرف کلیات الأشياء ویبین
مالذي يجب ان یعتقد في شيء شيءٍ وما الذي هو معدلةٌ في
شيءٍ شيءٍ ولا یعرفنا العقل مثلاً ان لحم الخنزیر والدم والخمر محرم
وانه يجب ان يتحامي من تناول الطعام في وقت معلوم وان لا تتكح
ذوات المحارم وان لا تجامع المرأة في حال الحيض فان اشباه
ذلك لاسبیل الیها الا بالشرع فالشرع نظام الاعتقادات الصحیحة
والافعال المستقیمة والذال علی مصالح الدنیا والاخرة ومن عدل
عنه فقد ضلَّ سواء السبیل . ولاجل ان لاسبیل للعقل الی معرفة
ذلك قال الله تعالی : « وما كنا معذِّبین حتی نبعث رسولاً » .
وقد قال الله تعالی : « ولو انا اهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا
لولا ارسلت الینا رسولا فنتبع آیاتك من قبل ان نذل ونخزی » .
والی العقل والشرع اشار بالفضل والرحمة بقوله تعالی : « ولولا

(١) الفناء بالفتح والمد النفع

فضل الله عليكم ورحمته لا تبغتم الشيطان الا قليلا» . وعنى
بالقليل المصطفين الاخير

الباب التاسع عشر

في فضيلة الشرع

اعلم ان احكام الشرع من وجهٍ دوائٍ ومعجون مفروغ منه
تولى ايجاده من له الخلق والامر . وهو دوائٍ مفيد للحياة الأبدية
والسلامة الدائمة كما قال الله تعالى : « أَوَمَنْ كَانَ مِيتًا فَاحْيَيْنَاهُ
وقال تعالى : « وكذلك اوحينا اليك روحًا من امرنا ما كنت
تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورًا نهدى به من
نشأ من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم » . فجعل ذلك
روحاً لإفادة الحياة الابدية . وقال الله تعالى : « قل هو للذين آمنوا
هدى وشفاء » . وقوله : « شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة
للمؤمنين » * ومن وجهٍ هو ماءٌ مطهر مزيل للأنجاس والارجاس
النفسية كما قال الله تعالى في وصفه للقرآن : « انزل من السماء
ماءً فسالت اودية بقدرها فاحتمل السيل زبدًا رايًا » . وكذلك
قال الله تعالى : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت
ويطهركم تطهيرا » * ومن وجهٍ هو نورٌ وسراجٌ مزيل للظلمة

والحيرة والجهالة قال الله تعالى: «قد جاءكم من الله نور وكتاب
 مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من
 الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم . وقوله تعالى :
 الله نور السموات والارض» * ومن وجهٍ وسيلةً الى الله عز وجل
 كما قال : «يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة» .
 وقال فيمن مدحهم : يبتغون الى ربهم الوسيلة ايتهم اقرب ويرجون
 رحمته . وقوله تعالى : واعتصموا بحبل الله جميعا . وقوله
 تعالى : فليرتقوا في الاسباب * ومن وجهٍ هو الطريق المستقيم
 كما قال الله تعالى : «وان هذا صراطي مستقيما» .

فصل

ذكر بعض الحكماء ان الارض المقدسة المذكورة في قوله
 تعالى «يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا
 تردوا على ادباركم» . هي في الدنيا الشريعة وفي الآخرة الجنة
 لانها هي التي اذا دخلها الانسان لا يرتد على دُبُرِه ونال السعادة
 الكبرى بلا مشنوية^(١) فاما بيت المقدس في الأرض فان من يدخله
 فبنفس دخوله اياه لا يستحق مثوبة بل المثوبة تستحق بأمر آخر
 يكون دخوله المكان الذي هو بيت المقدس آخرها بعد ان

(١) يقال هبة ليس فيها مثنوية ولا ثنيا اي استثناء.

يكون دخوله على وجه مخصوص وفي حال مخصوص . قال وعلى هذا الحرم المذكور في قوله تعالى : « اولم يروا انا جعلنا حرمًا آمنًا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون » . وسأل جعفر بن محمد الصادق بعض الفقهاء عن هذه الآية فقال أريد بها مكة فقال : واعجبا واي أرض أكثر تخطف لمن حولها من مكة . ويدل على ما قال قول الله تعالى بعد ذلك : « وما اوتيت من شيء فتتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وابقى أفلا تعقلون » وكذلك قوله تعالى : واذا قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سُجَّدًا نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين » . والسفر الموعود بالغنمية بقول النبي صلى الله عليه وسلم سافروا تغنوا هو السفر الى هذه الدار . وكذلك القرار المدعو اليه من جهة المثل بقوله ففرُّوا الى الله . وكذا الحج الاكبر الذي دعا الناس اليه بقوله : « واذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر » وقوله تعالى : « والله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » وكذا الجهاد الاعظم في قوله تعالى : « وجاهدوا في الله حق جهاده » . والهجرة الكبرى في قوله تعالى « ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها » .

الباب العشرون

في ان من لم يقصص بالشرع وعبادة الله فليس بانسان
لما كان الانسان انما يصير انسانا بالعقل ولو توهمنا العقل
مرتفعا عنه لخرج عن كونه انساناً ولم يكن اذا تخطينا الشج المائل
الاً بهيمة مهيمة او صورة ممثلة والعقل لن يكمل بل لا يكون
عقلا الا بعد اهتدائه بالشرع كما تقدم ولذلك نفى العقل عن
الكفار لما تعرفوا عن الهداية بالشرع في غير موضع من كتابه
والاهتداء بالشرع هو عبادة الله تعالى فالانسان اذا في الحقيقة
هو الذي يعبد الله ولذلك خُلِقَ كما قال الله تعالى : « وما خلقت
الجن والانس الا ليعبدون ما اريد منهم من رزق وما اريد ان
يطعمون » . وكما قال تعالى : وما امرؤ الا ليعبدوا الله مخلصين له
الدين » . فكل ما وجد لفعل فمتى لم يوجد منه ذلك الفعل كان
في حكم المعلوم ولذلك كثيراً ما يسلب عن الشيء اسمه اذا
وجد فعله ناقصاً كقولهم للفرس الرديء ليس هذا بفرس وللانسان
ليس هذا بانسان . ويقال فلان لاعين له ولا اذن له اذا بطل
فعل عينه واذنه وان كان شبحهما باقياً وعلى هذا قال تعالى :
صم بكم عمي » . فبين لم ينتفع بهذه الاعضاء فالانسان يحصل له

من الانسانية بقدر ما يحصل له من العبادة التي لاجلها خلق ^{ان} فمن
 قام بالعبادة حق القيام فقد استكمل الانسانية ومن رفضها فقد
 انسلك من الانسانية فصار حيوانا او دون الحيوان كما قال الله
 تعالى في وصف الكفار: «ان هم الا كالانعام بل هم اضلُّ
 سبيلا» . وقال: ان شرَّ الدواب عند الله الصمُّ البكمُ الذين
 لا يعقلون» . فلم يرض ان يجعلهم انعاماً ودوابً حتى جعلهم
 اضلَّ منها وجعلهم من اشرارها واخرج كلامهم عن جملة البيان
 فقال تعالى: «وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاءً وتصديّة»
 تنبيهاً على انهم كالطيور التي تمكو وتصديّ^(١) ونبه تعالى بنكته
 لطيفة على ان الانسان لا يكون انساناً الا بالدين ولا ذابيان
 الا بقدرته على الاتيان بالحقائق الدينية فقال تعالى: «الرحمن
 علم القرآن خلق الانسان علمه البيان» . فابتدأ بتعليم القرآن
 ثم بخلق الانسان ثم بتعليم البيان ولم يدخل الواو فيما بينهما وكان
 الوجه على متعارف الناس ان يقول خلق الانسان وعلمه البيان
 وعلمه القرآن فان ايجاد الانسان بحسب نظرنا مقدم على تعليم البيان
 وتعليم البيان مقدم على تعليم القرآن لكن لما لم يعد الانسان انسانا
 مالم يتخصص بالقرآن ابتداء بالقرآن ثم قال خلق الانسان

(١) مكا الطائر صفر . وصدّى صفق

تنبیها علی ان بتعلیم القرآن جعله انساناً علی الحقيقة ثم قال علمه
البيان تنبیهاً علی ان البيان الحقيقي المخلص بالانسان يحصل بعد
معرفة القرآن فنبه بهذا الترتیب المخصوص وترك حرف العطف
منه وجعل كل جملة بدلاً مما قبلها لاعطفاً علی ان الانسان
مالم يكن عارفاً برسوم العبادة ومخصصاً بها لا يكون انساناً وان
كلامه مالم يكن علی مقنضی الشرع لا يكون بياناً . فان قيل فعلى
ما ذكرته لا يصح ان يقال للكافر انسان وقد سماهم الله بذلك في
عامة القرآن . قيل اننا لم نقل اننا لانسى الكافر انساناً علی تعارف
الكافة بل قلنا قضية العقل والشرع تقضي ان لا يسمى به الا
مجازاً مالم يوجد منه العقل المخلص به ثم ان سمي به علی سبيل
تعارف العامة فليس ذلك بمنكر فكثير من الاسماء يستعمل علی
وجه فيبين الشرع ان ليس استعماله علی ما استعملوه كقولهم الغني
فانهم استعملوه في كثرة المال وبين الشرع ان الغني ليس هو كثرة
المال قال عليه الصلاة والسلام ليس الغني بكثرة المال وانما الغني
غني النفس . فيشير الى ان الغني ليس هو كثرة المال وقال تعالى
«ومن كان غنياً فليستغفف» . اي كثير الأعراض^(١) فاستعمله

(١) العرض بوزن الناس المتاع وجمعه عروض ولا يجمع اعراض

الأعلى لغة من فتح الوسط

على ما هو متعارف . وجملة الامران اسم الشيء اذا اطلقه الحكيم على سبيل المدح يتناول الأشرف منه كقوله تعالى : «وانه لذكر لك ولقومك . وقوله تعالى : «ورفعنا لك ذكرك» وان كان الذكر قد يقال للمحمود والمذموم . وعلى هذا يمدح كل شيء بلفظ نوعه فيقال فلان هو انسان وهذا السيف سيف ولهذا قيل الانسان المطلق هونبي كل زمان وقد قال عليه الصلاة والسلام : الناس اثنان عالم ومتعلم وما عداهما همج^(١) . وقال بعض العلماء : قول من قال الانسان هو الحي الناطق الميت صحيح وليس معناه ماتوهمه كثير من الناس من انه من الحياة الحيوانية والموت الحيواني والنطق الذي هو في الانسان بالقوة وانما اريد بالحي من كان له الحياة المذكورة في قوله تعالى : « لينذر من كان حياً » . وبالنطق البيان المذكور بقوله : « علمه البيان » وبالميت من جعل قوته الشهوانية والغضبية مقهورتين على مقضى الشريعة فيكون حينئذ ميتاً بالارادة حياً بالطبيعة كما قيل : مت بالارادة تحي بالطبيعة كما قال امير المؤمنين عليه السلام : من امات نفسه في الدنيا فقد احياها في الآخرة

(١) يقال للرعاع الحمقى انما هم همج واصله الذباب الصغير يسقط على

وجه الغنم وغيرها

الباب الحادي والعشرون

فما يتعلق بالشرع من الافعال

الانسان ضربان من الاحوال لا ينفك منهما ضرب لا يلحقه فيه محمدة ولا مذمة ولا في جنسه تكليف وذلك شينان احدهما احوال ضرورية لا يمكنه ان ينفصى^(١) منها كبض العرق والتنفس وما يجري مجراها من الاحوال الضرورية . والاخر ما يقع من الانسان على سبيل السهو والخطأ وان كان جنسه مقدوراً له وهو المذكور في قول النبي صلى الله عليه وسلم: رفع عن امتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه . وضرب تلحقه فيه المحمدة والمذمة وفي جنسه التكليف وذلك ثلاثة اشياء احدها الافعال المختصة بالجوارح كالقيام والقعود والركوب والمشى والنظر وكل ما يحتاج الى استعمال الاعضاء فيه . والثاني حفظ عوارض النفس كالشهوة والخوف واللذة والفرح والغضب والشوق والرحمة والغيرة وما اشبه ذلك . والثالث ما يختص بالتمييز والعلم . وكل واحد من هذه الثلاثة اما ان يحمده عليه الانسان او يذم . فحمده ان تكون افعاله جميلة وعوارض نفسه مستقيمة وقلبه ذكياً حتى يعتقد الحق

(١) تفصى الانسان من الشريرة فخلص

ويقول على معرفته اذا ورد عليه . والمذمة تلحقه ان كانت على
اضداد ذلك . والعبادات بهذه الاشياء الثلاثة تخص . والله
تعالى في كل فعل يتجراه الانسان عبادة سواء كان الفعل واجباً
او ندباً او مباحاً وتكون تلك العبادة مبينة اما بيديته العقل او
بالكتاب او بلسان النبي او باجماع الامة او بالاغترارات والاقيسة
المبنية على هذه الاصول بل مامن حكم الا وكتاب الله ينطوي
عليه كما قال الله تعالى : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » . عرفه
من عرفه وجهله من جهله . وما من مباح الا واذا تعاطاه
الانسان على ما يقضيه حكم الله تعالى كان الانسان في تعاطيه
عابداً لله مستحقاً لثوابه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد
انك لتؤجر في كل شيء حتى اللقمة تضعها في في امرأتك . ومخاطبته
لسعد بذلك لما عرف منه انه يراعي في افعاله حكم الله تعالى . وعلى
هذا الوجه قال : مامن مسلم غرس غرساً لم يأكل منه شيئاً الا
كان له صدقة . ومراعاة امر الله في جميع الامور دقيقها وجليلها
مستحب للكافة وواجب على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى كل
من تقرب منزلته من منزلته لقول الله تعالى : « فاستقم كما امرت
ومن تاب معك »

الباب الثاني والعشرون

في تحقيق العبادۃ

العبادة فعلٌ اختياريٌّ منافع للشهوات البدنية تصدر عن نية يراد بها التقرب الى الله تعالى طاعةً للشريعة . فقولنا فعل اختياريٌّ يخرج منه الفعل التسخيري والقهري ويدخل فيه الترك الذي هو على سبيل الاختيار فان الترك ضربان ضرب على سبيل الاختيار وهو فعل . وضرب هو العدم المطلق لا اختيار معه بل هو عدم الاختيار وليس بفعل . وبقولنا منافع للشهوات البدنية يخرج منه ما ليس بطاعة واما الافعال المباحة كالاكل والشرب ومجاعة المرأة فليس بعبادة من حيث انها شهوة ولكنها قد تكون عبادة اذا تحري بها حكم الشريعة وانما قيل تصدر عن نية يراد بها التقرب الى الله تعالى لانها ان خلت عن نية او صدرت عن نية لم يقصد بها التقرب الى الله تعالى بل اريد بها مراعاة لم تكن ايضاً عبادة وانما قيل طاعة للشريعة لان من انشأ من نفسه فعلاً ليس بسائع في الشريعة لم يكن عبادة وان قصد به التقرب الى الله تعالى فالعبادة اذاً فعل يجمع هذه الاوصاف كلها



الباب الثالث والعشرون

في انواع العباداة من العلم والعمل

العبادة ضربان علم وعمل وحقهما ان يتلازما لان العلم كالأس والعمل كالبناء وكما لا يغني أس ما لم يكن بناء ولا يثبت بناء ما لم يكن أس كذلك لا يغني علم بغير عمل ولا عمل بغير علم ولذلك قال الله تعالى: «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه». والعلم اشرفهما لكن لا يغني بغير عمل ولشرفه قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم ايما الاعمال افضل يارسول الله فقال العلم فاعاد عليه السؤال فقال العلم فقال الرجل في الثالثة اسألك عن العمل لاعن العلم فقال عليه السلام عمل قليل مع العلم خير من عمل كثير مع الجهل. وقال عليه السلام طلب العلم فريضة على كل مسلم * فالعلم ضربان نظري وعملي فالنظري ماذا علم كفي ولم يخرج فيه بعده الى عمل كمعرفة وحدانية الله تعالى ومعرفة ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ومعرفة السموات وما اشبه ذلك. والعملى ماذا علم لم يغن حتى يعمل به كمعرفة الصلاة والزكاة والجهاد والصوم والحج وبرّ الوالدين. والاعمال ثلاثة اضرب منها ما يختص بالقلب ومنها ما يختص بالبدن ومنها ما يشارك فيه

البدن القلب . والعلم ايضاً اذا نظر اليه وهو مكتسب فاكتسابه
عمل واذا نظر اليه وقد اكتسب وتصور في القلب خرج في
تلك الحال عن ان يكون عملاً . ومن وجه آخر ضربان واجب
وندى فالواجب يقال له العدل والندى يقال له الاحسان وهما
المذكوران في قول الله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان »
فالفرض والعدل تحري الانسان لما اذا عمله ائيب واذا تركه عوقب
والندى والاحسان تحري الانسان لما اذا عمله ائيب واذا تركه لم
يعاقب والانصاف من العدل والتفضل من البر والاحسان فالانصاف
هو مقابلة الخير من الخير والشر من الشر بما يوازيه والتفضل والبر
مقابلة الخير باكثر منه والشر بأقل منه . فالاحسان والتفضل
احتياط في العدالة والانصاف ليؤمن به من وقوع خلل فيه
وذلك انك اذا زدت في اعطاء ما عليك ونقصت في اخذ مالك
فقد احتطت واخذت بالحزم كدفع زيادة زكاة الى الفقير وترك
ما حل لك ان تتناول من مال اليتيم . فالعدالة ان كانت جميلة
فالتفضل احسن منها ولذلك قال تعالى فممن استوفى حقه
فتحري العدالة : « ولَمَنْ انتصِرْ بِعَدْلِهِ فَاُولَئِكَ مَاعَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ »
وقال سبحانه بعده : « وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلنَّقْوَى » . وقال عز وجل
« وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ » . اشارة الى ان الاحسان حسن والتفضل

احسن وقال عز وجل « للذين احسنوا الحسنى وزيادة » فالانسان
انما يكون محسناً مفضلاً بعد ان يكون عادلاً منصفاً . فاما من ترك
ما يلزمه ثم تحرى ما لا يلزمه فانه لا يقال له متفضل ولا يجوز تعاطي
التفضل الا لمن كان مستوفياً وموفياً لنفسه فأما الحاكم المستوفي
والموفي لغيره فليس له الا تحري العدالة والتصفه^(١)

فصل

العلوم من حيث الكيفية ضربان تصور وتصديق فالتصور هو ان
يعرف الانسان معنى الشيء صححَّ عنده ذلك بدلالة او لم يصح
لمن عرف الصلاة وشرائطها وان لم تثبت صحتها عنده بدلالة
والتصديق هو ان يتصور الشيء ويثبت عنده بدلالة تقضي صحته
والتصديق على ثلاثة اضرب اما بغلبة الظن وهو ان يكون
عليه دلالة وقد يعترضها شبه توهنها او تبطلها قال الله تعالى :
« اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » .
واما بعلم اليقين وهو ان يصير بحيث يعلم ويعلم انه يعلم ولا يعترضه
شبه توهنه كالعلم مثلاً بان ثلاثة وثلاثة ستة وانه لا يصح ان
يكون اكثر من ذلك او اقل قال الله تعالى : « انما المؤمنون
الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا » . واما بعين اليقين وهو

(١) النصفه محرّكة الانصاف

ان یرى بعقله الشیء و یعانیه ببصیرته فی حال الیقظة والنوم وقد
 نبه الله تعالى علی هذه الوجوه بقوله : « کلا سوف تعلمون ثم کلا
 سوف تعلمون کلا لو تعلمون علم الیقین لترونا الجحیم ثم لترونها عین
 الیقین » * فاما التصورات المجردة فالعامه الذین قال الله تعالى
 فیهم : « ولورده الی الرسول والی اولی الامر منهم لعله الذین
 یستنبطونه » . واما غلبه الظن فالعامه الذین مدحهم الله بقوله :
 « الذین یظنون انهم ملاقوا ربهم » * واما علم الیقین فللخاصه *
 واما عین الیقین ففی الدنیا للأنبیاء ولبعض الصدیقین . والی نحوه
 اشار النبی صلی الله علیه وسلم بقوله : تمام عینی ولا ینام قلبی .
 وبقوله : انی ارى من خلفی کما ارى من قدامی . قال امیر المؤمنین
 علی علیه السلام : لو کشف الغطاء ما ازددت یقیناً . وقال بعض
 الحکماء : علم الیقین یحصل للعقل بالفکر والذکر فان العقل بفکره
 ای ببحثه یدرک المعارف و بذکره یتحضرها اذا نسیها وغفل
 واشتغل عنها وبذهنه ینظر الیه دائماً کما ننظر نحن الی محسوس
 غیر غائب عن ابصارنا بلا حاجة الی بحث وطلب وتفکر وتذکر
 وكذلك قیل الانسان یعقل فینظر الی الحق بالفکر والملائکه
 دائماً ینظرون الیه بالذهن من غیر حاجة الی تفکر وطلب

فصل

للانسان في استفادة العلم وافادته ثلاثة احوال : حال
استفادة فقط وحال استفادة من فوقه وافادة لمن دونه وحال
افادة فقط وقل من يستحق ان يوجد مفيداً غير مستفيد ففوق
كل ذي علم عليم الى ان ينتهي الامر الى علام الغيوب فقد نبه
الله تعالى على الحاجة الى الاستفادة بما حكاه من قول موسى عليه
السلام لصاحبه: «هل اتبعك على ان تعلمي مما علمت رشداً» ونبه بما
ذكر في قصة سليمان عليه السلام عن الهدهد بقوله : احطت بما
لم تحط به علماء . ان الكبير قد يفنقر الى الصغير في بعض العلوم
فاذا الانسان مادام حياً يجب ان لا يخرج من كونه مستفيداً
ومفيداً كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : الناس عالم ومتعلم وما
سواهما همج

الباب الرابع والعشرون

في ان الغرض من العبادة تطهير النفس واجتلاب صحتها
لم يكلف الله الناس عبادته لينتفع هو تعالى بها انتفاع المولى
باستعباد عبيده واستخدام خدَمه فان الله غني عن العالمين .
ولا ليؤدبهم فقد قال تعالى : « يريد بكم اليسر ولا يريد بكم

العسر» . بل كلفهم ليزيل انجاسهم وامراضهم النفسية فبذلك يمكنهم ان يحصلوا حياةً ابديةً وسلامةً باقيةً سرمديةً فان من وُلد يكون ميتاً بالاضافة الى اصحاب الدار الآخرة وفاقداً للعين التي بها يعرفهم والسمع الذي به يسمع تحاورهم واللسان الذي به يخاطبونه ويخاطبهم والعقل الذي به يعقلهم فليس تلتم الحياة والعين والسمع ما للانسان في الحياة الدنيا . وكيف يكون كذلك وقد نفى الله ذلك عن الكفار وجعلهم امواتاً وصمّاً وبكماً وعمياً فان الانسان له قوة على تحصيل تلك الامور في ابتداء امره وان اهمل نفسه فاتت عنه تلك القوة فلا يمكنه بعد قبول ذلك كالفتح اذا صار ماداً فلا يقبل بعد ذلك نارا فمن استمر في كفره وفسقه وتمادى فيه صار اما ميتاً او مريضاً او اصمّاً لا يقبل الشفاء ولذلك قال الله تعالى فمِن ثَمَلِ هَذِهِ الْقُوَّةِ : « انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصمّ الدعاء اذا ولّوا مدبرين وما انت بهادي العمي عن ضلالتهم» . وقال تعالى : « صمّ بكم عمي فهم لا يعقلون» وقال تعالى : « في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت . وقال تعالى : « انما المشركون نجس» . وقال تعالى في المؤمنين : « لينذر من كان حياً» . وقال فيهم : « اولي الايدي والابصار» . فمن استفاد الحياة والصحة والطهارة قبل

ان تبطل عنه هذه القوى اعني قبول ذلك فصار حياً سميعاً
 بصيراً طاهراً وحصل زاداً كما امره الله تعالى بقوله: « وتزودوا
 فان خير الزاد الثقوى » . واهتدى بالدليل الموصوف بقوله تعالى
 « وانك لتهدي الى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في
 السموات وما في الارض الا الى الله تصير الاموز » . وائتمره
 تعالى بقوله: « سابقوا الى مغفرة من ربكم » . واقتدى بالموصوفين
 بقوله سبحانه: « يسارعون في الخيرات » . فجدير ان يفلح فيحصل
 هذه السعادة كما قال الله تعالى: « لعلم تفلحون »

الباب الخامس والعشرون

في بيان الامراض والانجاس التي لا يمكن ازالتهما الا بالشرع
 كما ان في بدن الانسان عوارض واموراً موجودة عند
 الولادة او توجد حالاً فحلاً بحكمة تقضي ذلك وهي تعد
 نجاسات لا بد من اماطتها كلها او اماطة فضولاتها وذلك كالسلي^(١)
 والسرّة والقلفة والعقيقة الموجودة في الصبي عند الولادة
 وكالاوساخ والقمل والظفر وشعر العانة وشعر الابط كذلك في

(١) السلي على وزن الحصى الذي يكون فيه الولد

نفس الانسان عوارض هي نجاسات وامراض نفسانية يلزم اماطتها كالجهل والشرة والعجلة والشح والظلم . ويدل على كون ذلك مخلوقا فيه وامره باماطته واماطة فضلاته ما ذكر الله تعالى في مواضع من كتابه بقوله : « خلق الانسان من عجل » فذكر انه مخلوق منه كما ترى . ثم امره ان ينحيه عن نفسه وان لا يستعين به فقال : « سأريكم آياتي فلا تستعجلون » . وقوله تعالى : « انه كان ظلوماً جهولاً » . ثم امره بالعلم والعدل في غير موضع من كتابه . وقوله تعالى : « واحضرت الانفس الشح » . ثم قال : « ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون » . فامر به بانقاء الشح مع احضاره اياه . وقوله تعالى : « ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا » . ووصفه بالكفور والقنور في قوله : « وكان الانسان كفورا » . وقوله تعالى : « قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربي اذا لامسكم خشية الانفاق وكان الانسان قتورا » . فأدخل عليه كان تنبيها على ان ذلك فيه غريزي موجود قبل لاهوشي طاري عليه . وقوله تعالى « وكان الانسان اكثر شيء جدلاً » . ثم نهى عن اكثر الجدل فالانسان يحتاج ان يستعمل هذه القوى في الدنيا كما يجب وفي وقت ما يجب وبقدر ما يجب وان يميظ فضولاتها قبل خروجه من

الدنيا حسب ماوردت به الشريعة فانه متى لم يتطهر من النجاسة
 ولم يُزل امراض نفسه لم يجد سبيلا الى نعيم الآخرة بل ولا الى
 طيب الحياة الدنيا وذلك ان من تطهر تجلى عن قلبه الغشاوة
 فيعلم الحق حقاً والباطل باطلا فلا يشغله الا مايعنيه ولا يتناول
 الا مايعنيه فيحيى حياة طيبة كما قال تعالى: «فلنجيننه حياة طيبة»
 ولا تصير قياته في الدنيا وبالاً عليه وعذاباً كما قال الله تعالى في
 الكفار: «فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم انما يريد الله ليعذبهم
 بها في الحياة الدنيا وتزهق انفسهم وهم كفرون» . ويصير قلبه
 اذا تطهر مقرّ السكينة والارواح الطيبة كما وصف الله تعالى
 المؤمنين بقوله: «هو الذي انزل السكينة في قلوب المؤمنين
 ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم» . وعرف الطريق التي بها التوصل
 الى الجنة المأوى ومصاحبة الملائكة الاعلى في مقعد صدق عند
 ملك مقدر فيسارع في الخيرات ويسابق الى مغفرة من ربه .
 ومتى بقيت نجاسته وتزايدت صار قلبه مقرّ الشبه والآثام كما
 قال الله تعالى: «هل أنبئكم على من تنزلُ الشياطين تنزل على
 كل أفاك اثم» ولا يجد سبيلا الى سعادة الدار الآخرة كما قال
 الله تعالى: «ايطمع كل امرئ منهم ان يدخل جنة نعيم كلاً انا
 خلقناهم مما يعلمون» فنبه على انه لا يصلح لجنته ما لم تطهر ذاته عن

اشياء هي مخلوقة فيها وعلى هذا دلَّ قوله تعالى: « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما انتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » .
 فحق الانسان ان يراعي هذه القوى فيصلحها ويستعملها على الوجه الذي يجب وكما يجب ليكون كمن وصفه الله تعالى بقوله: « الذين توفاهم الملائكة طيبين يقولون سلامٌ عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » . وقد يقع للانسان شبهة في امر هذه التجاسات فيقول اترى ان ذلك من عند غير الله فان كان من غيره فمن اين يوجد ومن اين منبعه وان كان منه فما المعنى في ان اوجده في الانسان ثم امره بان يزيله فيقال ما من شيء اوجده الله او امكن من ايجاده الا وفيه حكمة ومنفعة وان لم يعرف ذلك البشر لكن من الاشياء مانفعه في وقت مخصوص او اذا كان على قدر مخصوص ثم اذا استغني عنه او زاد على قدر ما يحتاج اليه يجب ان يزال وذلك اذ تؤمل ظاهر اذ من المعلوم ان السلا والسرة يحتاج اليهما لصيانة الولد في وقت ثم يستغني عنهما فيكون ابقاءهما بعد نجاسة والشعر والظفر يحتاج اليهما اذا كانا على حد واذا زادا يجب اماطتهما .

الباب السادس والعشرون

في القوى التي يجب ازالة امراضها وانجاسها والمعاني التي تحصل منها
ازالة النجاسة واجتلاب الطهارة المذكورة في قوله تعالى :
(انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويظهركم تطهيرا)
واكتساب الصحة واماطة المرض المذكور في قوله تعالى : (في
قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) يكون باصلاح القوى الثلاثة
التي هي دواعي الانسان في متصرفاته وهي قوة الشهوة وقوة
الحمية وقوة الفكر فباصلاح قوة الشهوة تحصل العفة فيحترز بها
من الشره واماتة الشهوة ويتحرى المصلحة في المأكل والمشروب
والملبوس والمنكوح وطلب الراحة وغير ذلك من اللذات الحسية
وباصلاح قوة الحمية تحصل الشجاعة فيحترز من الجبن والتهور
والحسد ويتحرى الاقتصاد في الخوف والغضب والانفة وغير
ذلك . وباصلاح قوة الفكر تحصل الحكمة حتى يحترز من
البله والجريزة^(١) ويتحرى الاقتصاد في تدبير الامور الدنيوية .
وليس نغني بالحكمة ههنا العلوم النظرية وانما نغني بها الحكمة

(١) الجريزة بالضم الخب الخبيث معرب كبريز والمصدر الجريزة . والخب
بالفتح والكسر الرجل الخلداع

العملية التي يتحرى بها المصالح الدنيوية وباصلاح هذه القوس
يحصل في الانسان قوة العدالة فيقتدي بالله تعالى في سياسة نفسه
وسياسة غيره فنفس الانسان معادية له كما قال تعالى: (ان النفس
لأَمَّارَةٌ بالسوء الا ما رحم ربي) وقال النبي صلى الله عليه وسلم
اعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك فمن ادبها او قمعها امن ظلها
والى هذا اشار الله تعالى بقوله: (ومن يعمل من الصالحات وهو
مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً) اي لا يخاف ان تظلمه نفسه
الشهوية فالاعمال الصالحة حصن منها لقول الله تعالى: (ان
الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)

الباب السابع والعشرون

في كون الانسان مفطور على اصلاح النفس

الانسان مفطور في اصل الخلقة على ان يصلح افعاله واخلاقه
وتبزيه وعلى ان يفسدها ويمسره ان يسلك طريق الخير والشر
وان كان منهم من هو بالجملة الى احدهما اميل . وعلى تمكنه من
السييلين دل الله بقوله: (انا هديناه السبيل اما شاكرًا واما
كفورًا) وقوله تعالى: (وهديناه النجدين) اي عرفناه الطريقين
وكما انه مفطور على اكتساب الامرين في ابتدائه مفطور على انه

اذا تعاطى احدهما ان خيراً وان شراً الفه فاذا الفه تعودّه واذا
تعوده تطبع به واذا تطبع به صار له طبعاً وملكة فيصير فيه
بحيث لو اراد ان يتركه لم يمكنه كما قيل:

« وتأتي الطباع على الناقل »

ويكون مثله كمثل شجر نبت فاعوجَّ سهل في الابتداء
ثقيفه وتسويته بخيط يشد فيه او بخشب يفرش بجانبه فيسدد
به . ثم اذا غلظ واشتد مستويآ امن ان يعوج بل لا يمكن تعويجه
وان ترك حتى يعوجَّ فيصلب على عوجه لم يمكن بعد ثقيفه كما
قال الشاعر:

يقوم بالثقاف العود لدناً * ولا يتقوم العود الصليبُ

وعلى هذا الوجه قال الله تعالى: (ان الحسنات يذهبن السيئات)
وقال تعالى: (ويدراون بالحسنة السيئة) وقد توهم قوم ان لا اثر
للتأديب والتهذيب فان الناس مجبولون على طبائع لا سبيل الى
تغييرها فمنهم اخيار بالطبع ومنهم اشرار بالطبع واستدلوا بقول
الله تعالى: (قل كلُّ يعمل على شاكلته . وقوله تعالى: فطرة الله
التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) فبه الله بهذا المعنى
على ان كل انسان على حال لا سبيل الى تغييرها . وقول النبي
صلى الله عليه وسلم كلُّ ميسر لما خلق له . وقوله عليه السلام:

فرغ ربكم من الخلق والخلق والرزق والاجل . وبقوله تعالى :
 (ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين) وقوله :
 (انا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وانهم عندنا لمن المصطفين
 الاخيار) وقوله : (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) والناس
 وان تفاوتوا في اصل الخلقة فما احد الا وله قوة على اكتساب
 قدر ما من الفضيلة ولولا ذلك لبطلت فائدة الوعظ والانذار
 والتأديب

الباب الثامن والعشرون

في سبب رذيلة الانسان وتأخره عن الفضيلة
 سبب تأخر الانسان عن الفضيلة لا يخلو من اوجه : اما
 ان يكون نقصاً في اصل خلقته وعجزاً مركباً في جبلته يتقاعده
 عن تحصيل القوة وجمع الآلة التي يتوصل بها الى السعادة كمن
 تضعف نخبته^(١) او لا يفضل عن طلب معاشه الضرورية في
 وقته او لا يجد هادياً يرشده فمن كان كذلك فمعدور لقوله
 تعالى : (لا يكلف الله نفساً الا وسعها) * واما انه غير عاجز
 عن ذلك لكن لم يساعده على بلوغه عمره فذلك قد وقع اجره

(١) النخبة الطبيعة

على الله كما قال الله تعالى : (ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله
 ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله) * واما ان يتفق
 له رَبٌّ ومعلم مُضِلُّ فيضله عن الطريق وهذا ان لم يتمكن من
 الاهتداء بمن يرشده ويسدده يكون معذوراً والأثم فيما يرتكبه
 لمن قد اضله لا له كما قال الله تعالى في المضلين : (ليحملوا اوزارهم
 كاملة يوم القيامة ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم الا ساء
 ما يزرعون) . وان تمكن بعد من يهديه فلم يهتد به يكون هو
 ومضله مشتركين في الأثم كما قال الله تعالى : (احشروا الذين
 ظلموا وازواجهم) * واما ان يكون ضلاله من جهة نفسه لا من
 جهة شيء مما تقدم وذلك هو المتوعد بالعذاب فمن ازاح الله
 عنه بالفهم والكفاية والعلم الناصح فرغب عن الاهتداء وترك
 طريقة الرشاد يكون كمن وصفه الله تعالى بقوله : (واتل عليهم
 نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من
 الغالوتين) وبقوله : ولقد ارينا آياتنا كلها فكذب وأبى) واكثر
 منه عقوبة من استفاد العلم وعرف الحق وسلك من طريق الخير
 مراحل ثم ارتد عنها راجعاً كمن وصفه الله بقوله : (ان الذين
 ارتدوا على اديبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سؤل لهم
 واملى لهم) وبقوله : ومن يرتدد منكم عن دينه . . . الآية

الباب التاسع والعشرون

في احوال الناس ومنازلهم وفي تعاظم الافعال المحمودة
والمذمومة وطرقها

الناس في اقامة العبادات وتحري الخيرات على اربعة اضرب :
الاول مَنْ له العلم بما يجب ان يفعل وله مع ذلك قوة العزيمة
على العمل به وهم الموصوفون بقوله عز وجل في غير موضع : (الذين
امنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) * الثاني
من عدمهما جميعاً وهم الموصوفون بقول الله تعالى : (ان شرَّ الدواب
عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . وقوله : ان هم الا كالانعام
بل هم اضل سبيلاً) * الثالث . مَنْ له العلم وليس له قوة العزيمة
على فعله فهو في مرتبة الجاهل بل هو شرُّ منه كما روي ان حكياً
سئل متى يكون العلم شرّاً من الجهل فقال ان لا يعمل به . ورؤي
عن امير المؤمنين علي كرم الله وجهه انه قال : من كانت ضلالتة
بعد التصديق بالحق فهو بعيد من المغفرة * الرابع مَنْ ليس
له العلم لكن له قوة العزيمة فهذا متى انقاد لاهل العلم وعمل بقولهم
انجح في فعله وصار من الموصوفين بقوله تعالى « اولئك مع الذين
انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين

وحسن اولئك رفيقا»

والافعال الجميلة والقيمة يتقوى الانسان فيها بتكريرها مراراً كثيرة وزماناً طويلاً وقتاً بعد وقت في اوقات متفاوتة فان من فعل ذلك في شيء اعناده واذا اعناده تخلق به فالحذق في الصناعة كالكتابة مثلاً يكون باعتياده فعل من هو حاذق في الكتابة . والافعال التي تحصل عن الاخلاق بعد حصولها هي باعيانها الافعال التي بتعاطاها المتخلق بها حتى تصير خلقاً فحق الانسان ان يتدرب بفعل الخير فان من تعود فعلاً صار له ملكة كالصبي قد يلعب بتعاطي صناعة فيؤدي لعبه بها الى ان يتعلمها

فصل

العبادات تكون محمودة اذا تعاطاها الانسان طوعاً واختياراً لاتفاقاً واضطراراً ودائماً لا في زمان دون زمان ولا جل ان ذاتها حسنة لا لاجل غيرها فمن اقامها على هذا الوجه فهو الموصوف بقوله تعالى : « واخلصوا دينهم لله فاولئك مع المؤمنين وسوف يؤتي الله المؤمنين اجراً عظيماً » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم اخلص يخلص . يكفك القليل من العمل ولا يرضى تعالى الا الاخلاص كما قال الله تعالى : « الا لله الدين الخالص » . فان من فعل خيراً نحو ان يصلي لانه اتفق اجتماعه مع المصلين فساعدتهم او

اكره ان يصلي او صلاًها في شهر رمضان مثلاً دون سائر
الاقوات او لاجل ان ينال بها جاهاً او مالاً فليس ذلك مما يستحق
بها محمده . وكذا من ترك قبجها اما اتفاقاً او اضطراراً او خوفاً
او في زمان دون زمان او لأن ينال بذلك امرأً دنيوياً فليس
بمحمود ولهذا قال الله تعالى : « الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله
ثم لا يتبعون ما انفقوا مناً ولا اذى لهم اجرهم عند ربهم ولا خوفٌ
عليهم ولا هم يحزنون » . تنبيهاً على ان من لم يُنفق ماله هكذا
ويعلوه خوفٌ من الفقر وحزن على الانفاق فلا يحصل له بذلك
فضيلة ثم قال تعالى : « يا ايها الذين امنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ
والاذى كالذي ينفق ماله رياءً للناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر
فشله كمثل صفوان عليه تراب . . الآية

الباب الثالثون

في ارتداد الناس من طريق الخير والشر

للانسان فيما يتجراه من الخير والشر حالتان : حالة يتمكن
فيها من الارتداد على ادباره فيما يتعاطاه ان خيراً وان شراً
وذلك قبل ان يعن في سيره وبتناهي في ممره . وحالة يتعذر عليه
الارتداد على ادباره بل لا يكون له سبيل الى الرجوع وذلك اذا

امعن في سيره وتناهي في ممره . وذلك ان كل من كان متعاطياً
 لفعل خير فتكاسل عنه ومتعاطياً لشر فلم يقلع عنه اورثه كسله
 ضيق صدر بتجري الخير كما قال الله تعالى : « ومن يُرد ان يُضله
 يجعل صدره ضيقاً حرجاً » . وانشرح صدره بفعل الشر كما قال تعالى
 « افمن زين له سوء عمله فرآه حسناً » . فان استمر على ذلك ولم
 يقلع اورثه ذلك زيناً على قلبه كما قال الله تعالى : « كلاً بل
 ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » . فان تبادى في ذلك واستمر
 اورثه ذلك غشاوة كما قال تعالى : « فاعشىناهم فهم لا يبصرون »
 فان ازداد اورثه ذلك طبعاً وختماً كما قال تعالى : « ختم الله على
 قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم » . وقوله : « أفأريت من
 اتخذ الهه هواه واصله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على
 بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله افلا تذكرون » . فان ازداد
 صار ذلك قفلاً كما قال الله تعالى : « افلا يتدبرون القرآن ام على
 قلوب اقفالها » . ثم اذا تبادى صار قلبه موتاً قلماً ترجى له حياة
 فلا تنفعه الايات والنذر كما قال الله تعالى : « انك لا تسمع الموتى
 ولا تسمع الصم الدعاء اذا ما يندرون » . ومن حيث ان الله تعالى
 علم من احوال من بلغ هذا المبلغ انه لا يتوب ولا يؤوب قال الله
 تعالى : « ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل

توبتهم واولئك هم الضالون» فلم يرد تعالى انهم اذا تابوا لن
 تقبل توبتهم بل نبه بذلك على انهم لا يتوبون فنقبل توبتهم
 فدل منتهى الفعل على مبدأه وهذا من كلامهم كقول الشاعر
 «ولا يرى الضبُّ بها ينحجر»^(۱)

اي ليس بها ضب فینحجر ففنی انحجار الضب وهو فی
 الحقیقة نفی لوجود الضب بها وعلى هذا دل قوله تعالى : «ان الذين
 آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله
 ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً» . اي لم يكونوا ليتوبوا فيغفر لهم وعلى
 هذا قال تعالى : «انما التوبة على الله للذين يعملون سوءاً بجهالة
 ثم يتوبون من قريب» . تبيهاً على ان هؤلاء هم الذين يرجي
 لهم التوبة . وعلى هذه الجملة المذكورة قال النبي صلى الله عليه
 وسلم : اذا اذنب الرجل نكثت على قلبه نكتة سوداء فاذا اذنب
 ثانياً نكثت أخرى فلا يزال كذلك حتى يصير قلبه كلون الشاة
 الرمضاء . وفي خبر آخر : الذنب على الذنب حتى يسود القلب
 فلا ترجى له الاثابة . وكذا حال الانسان فيما يتعاطاه من فعل
 الخير فان من صبر في اقتراف الحسنه اورثه صبره حسناً كما

(۱) جحر الضب دخل جحره وهو كل شيءٍ تحفره السباع والهوام
 بآ نفسها . وجحر فلان الضب ادخله فيه فانحجر

وصف الله به الصابرين في مواضع من كتابه قال تعالى: «ومن يقترب حسنة نزد له فيها حسناً» . فان استمر في ذلك بعض الاستمرار اهتزاز ونشط وانشرح به صدره كما قال تعالى: «من يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام» . فان دام على ذلك امتحن وتطهر قلبه كما قال الله تعالى: «اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى» . ويكون كما وصفه في هذه السورة: «ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان اولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم» . فان تزايد في فعله انضم اليه من الله تعالى باعث يهزه وداع بيعته عليه كما قال الله تعالى: «هو الذي انزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم» . فحق الانسان ان لا يسامح نفسه في الاجتهاد وان لا يخلل بخير توعده ولا يرخص لها في شر ارتكبه فتعاطي صغير الذنب يفضي الي ارتكاب الكبير والاخلال بقليل الخير يوذي الى الإخلال بكثيره كما قال الشاعر:

وازرق الفجر يبدو قبل ايضه

واول الغيث قطر ثم ينسكب

وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله: «ان الذين ارتدوا على

ادبارهم من بعد ماتین لهم الهدى الشيطان سؤل لهم واملى لهم ذلك بانهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الامر» . فتبين ان قولهم للذين كرهوا ما نزل الله ادعى بهم الى الارتداد على ادبارهم وقال تعالى : « ان الذين تولوا منكم يوم التقي الجمعان انما استزلمم الشيطان ببعض ما كسبوا » . فنبه على ان بعض ما كسبوا ادعى بهم الى الانهزام فالتدرب في فعل الخير المنقوي فيه يصير بحيث يكون له من الله تعالى واقية تحفظه عن الافعال القبيحة وتحته على الافعال الحسنة وهذا معنى العصمة وعلى ذلك نبه الله تعالى في صفة اوليائه بقوله : « اولئك كتب في قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه » . وقال تعالى : « رضي الله عنهم ورضوا عنه اولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون » . والمتدرب بفعل الشر المنقوي فيه قد يصير بحيث يكون له بما ارتكبه من القبائح باعث يبعثه على الافعال القبيحة ويحثه على الافعال السيئة ويسد عليه طرق الافعال الحسنة وعلى ذلك نبه الله تعالى بقوله في صفة اعدائه « انا جعلنا في اعناقهم اغلالاً فهي الى الاذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين ايديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » . وقال تعالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين

وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون » . وقال تعالى : « انا جعلنا الشياطين اولياء للذين لا يؤمنون » . وقد نسب الله هداية العبد وضلاله جميعاً الى نفسه من حيث انه جعل خلقه وطبعه بحيث اذا تعاطى فعلاً ان خيراً وان شراً فاستمر عليه يصير ذلك طبعاً له ملازماً لا يرجع عنه ولم ينسب المنع من الايمان الي نفسه الا بعد ذكر ما كان من اسائة العبد نحو قوله : (انا جعلنا الشياطين اولياء للذين لا يؤمنون) . نخص الذين لا يؤمنون بان جعل الشيطان اولياءهم وقال تعالى : (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد كُتِبَ عَلَيْهِ انه من تولاه فانه يضلّه ويهديه الى عذاب السعير . وقال تعالى : ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زيننا لهم اعمالهم فهم يعمهون) . قال الشاعر

زُينَ في عينك القبيح كما * زُينَ في عين غيرك الحسنُ

الباب الحادي والثلاثون

في قدر ما في الوسع من اكتساب السعادة

الانسان لما كان على هيئة العالم اوجد فيه كل ما اوجد في

العالم وكما ان في العالم اشياء لا يتأتى اصلاحها وحيوانات لا يمكن

تأديبها كذلك في الانسان قوى لايتأتى اصلاحها وتهذيبها وكان
 له مع ذلك مشطات عما أمر به وتقصير عما كلف ولهذا قال الله
 تعالى : (قتل الانسان ما اكفره من اي شيء خلقه . الى قوله :
 كلا لما يقض ما امره) . فبه على ان الانسان لا يكاد يخرج من
 دنياه وقد قضى وطره ولذلك يجب على الانسان ان يجتهد في اداء
 ما امكنه ويطهر نفسه بقدر ما يتيسر له والرغبة الى الله تعالى في تكفير
 ما قصر فيه ويتحقق انه اذا فعل ما امكنه فقد اعذر لقوله تعالى :
 (لا يكلف الله نفساً الا وسعها) . فاذا فعل ما امكنه يكون قد ترشح
 ان يزيل الله عنه باقي السيئات كما قال الله تعالى : (يا ايها الذين
 آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكم ان يكفر عنكم سيئاتكم)
 وقال تعالى : (ان تجنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم
 وندخلكم مدخلاً كريماً) . ولهذا امرنا تعالى ان نديم الدعاء
 بقوله (ربنا لاتؤاخذنا ان نسينا او اخطانا) . وقال تعالى :
 (والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين ايديهم وبايمانهم يقولون ربنا
 اتمم لنا نورنا) . فأمرنا ان نرغب اليه في اتمام ما قصرنا عن اكتسابه
 وقوله (والذي جاء بالصدق الى قوله : ليكفر الله عنهم اسوأ
 الذي عملوا ويجزيهم اجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون) . ولهذا
 الجملة قال جعفر الصادق رضى الله عنه : من زعم انه يصل الى

الحق ببذل المجهود فهو متمنّ ومن زعم انه يصل اليه بغير بذل المجهود فهو متمنّ * ولقصور الانسان عن تزكية نفسه بالتام قال صلى الله عليه وسلم: ما أحدٌ يدخل الجنة بعمله قيل ولا انت يا نبي الله قال ولا انا الا ان يتغمدني الله برحمته . وقال تعالى تنبها على هذا المعنى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكي منكم من احد ابدا ولكن الله يزكي من يشاء » . وبيان قصور الانسان عن تزكية نفسه على التمام هو ان الانسان حيوان ناطق متفكر والحيوان جوهرٌ متنفس حسّاس والمتنفس جوهر متغذ مرتب لاقوام له الا بالغذاء كما قال الله تعالى (وما جعلناهم جسدا لايأكلون الطعام وما كانوا خالدين فالانسان مادام في الدنيا لا ينفك عن مشاركة البهائم والسباع لكونه حيوانا محتاجا الى ماتحتاج اليه . وعن مشاركة الاشجار والنبات لكونه متنفسا محتاجا الى ماتحتاج اليه . والانسان اذا لم يقتحم العقبة وينفك الرقبة وما لم يتعرّ عن الحاجات الدنية لم يأمن شياطين الانس والجن وكيف يأمن وقد قال الله تعالى « (وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا) . قال بعض المفسرين : ان ابراهيم لما سأل الله تعالى فقال : (رب ارني كيف تمحي الموتى قال او لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن

قلبي) . انما سأله ان يريه الحياة المتعزية عن العوارض العارضة
 للحيوانات فقال اولم تؤمن اي اولم نتحقق قال بلى ولكن ليطمئن
 قلبي اي ليتصور لي كيفية الطمانينة اي تبرى النفس من الشره
 والحرص والامل والافتخار واعاين الحالة المذكورة في قوله تعالى
 « يا ايها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي
 في عبادي وادخلي جنتي) . فأمره ان يأخذ اربعة طيور . غراباً
 وهو المخصوص بالحرص والشره . ونسراً وهو المخصوص بالامل
 وطاووساً وهو المخصوص بالافتخار . وديكاً وهو المخصوص بالشبق
 فأمره ان يقطعهن ويصرهن اي يدعوهن ولما فعل ذلك صرن
 اليه عاجلاً فنبه الله تعالى بذلك على ان الانسان وان اجتهد
 كل الاجتهاد في حذف هذه المعاني عن نفسه وتطهير ذاته منها
 لن يتطهر مادامت البشرية الدنيوية حاصلة له ولن تحصل له
 الطمانينة المطلوبة . فاما ما يدعيه قوم ان من الناس من قد
 تجرد عن هذه الخصاص حتى يستغني عن الطعام والشراب
 ويصير بحيث لاتعتريه الاخلاق البهيمية فهذا ان حصل في
 بعض الناس فان ذلك يكون حينئذ ملكاً متشجماً يسمى باسم
 الانسان على سبيل الاشتراك في الاسم فيكون متبدل الجوهر

تبدل جوهر النار اذا صارت برداً وسلاماً وتبدل الدُعموص^(١)
اذا صار ضفدعاً والدود اذا صار فراشا وكثيراً من النبات اذا
صار جوهرها آخرو حيوانا كدودة القز وليس ذلك بمنكر في القدرة
الالهية وهو حينئذٍ خارج عن الاستصلاح للافعال التي خلق
الانسان لاجلها مستخلفاً في الارض مستعمراً فيها

فصل

اعلم ان من هاجر الى الله وجاهد في سبيله فحقيق ان يهديه الى
سبيله كما وعد به في قوله تعالى: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم
سبلنا» . وقال: والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا الى
الى قوله: اولئك هم المؤمنون حقا» . والهجرة العظمى هجران
فضول الشهوات والمجاهدة الكبرى مدافعة الهوى كما قال النبي
صلى الله عليه وسلم: جهادك في هواك . فمن هدى الى سبيله وامعن
في مسيره مسارعا في الخيرات ومسابقا الى مغفرة ربه فحقيق ان
يصير من الابدال ومعنى الابدال هم الذين يبدلون من اخلاقهم
وافعالهم الذميمة اخلاقاً وافعالاً حميدة فيجعلون بدل الجهل العلم
وبدل الشح الجود وبديل الشره العفة وبديل الظلم العدالة وبديل
الطيش التؤدة وعلى ذلك دل قوله تعالى: «والذين لا يدعون

(١) الدُعموص بالضم دويبة توجد في الغدران

مع الله الهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله الا بالحق الى قوله: يبدّل الله سيئاتهم حسنات . والانساف اذا صار من من الابدال فقد ارتقى الى درجة الاحباب الذين عناهم الله تعالى بقوله: « فسوف ياتي الله بقوم يحبهم ويحبونه » . فيجعله مهيباً في البشر معظمّ القدر عند كل احد بل قد يبلغ مبلغاً تخضع له البهائم والسباع والوحوش والحشرات كخضوعها لسليمان بن داود عليهما السلام ويصير الحديد له ليناً كما لان لنيه داود عليه السلام وتصير النار له اذا خاضها برداً وسلاماً كما صارت على ابراهيم عليه السلام وثنقاده الريح فيركبها كركوب سليمان وتسخر له المياه فيمشي عليها كتسخيرها للخضر عليه السلام ويكلّمه النبات والمعادن والافلاك والنجوم فتقفه على منافعها وتخبره بسرّاتها كما كلمتها لا دريس عليه السلام* روي انه اذا احب الله عبداً البسه صورة من صورته ونفخ فيه روحاً من روحه حتى ينقاد له كل حجر ومدبر ويتواضع له كل طائر وسبع بل قد يخصه بكرامات لا يمكن ان يطلع على معرفتها غير من خصّها بها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه: اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقال تعالى اشارة لها هذا المعنى « فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة اعين »

وهذه الاحوال كما تكون للانبياء فقد تكون للاولياء المخصوصين
 بالكرامة وليس ذلك بمستبدع ولا منكر في قدرة الله تعالى ولا
 بمناف في حكمته كما ظن بعض المتكلمين ان ذلك اذا اظهره على
 غير انبيائه لا يؤمن ان يفتن به الناس وانه يؤدي الى اشتباه امر
 المعجزة على الكافة فان احكم الحاكمين لا يؤتي هذه المكرمة الا
 من هو اهلها كما نبه عليه سبحانه بقوله «الله اعلم حيث يجعل
 رسالته ومن بلغه هذه المنزلة فقد آتاه لاشك من العلم والحكمة
 قدر ما يهديه ويؤدبه وعرف ما يمسه فيستقيم كما أمر فيه فيعرف
 قدره ولا يتعدى طوره

الباب الثامن والثلاثون

في اثبات المعاد وفضيلة الموت وما يحصل بعده من السعادة
 لم ينكر المعاد والنشأة الآخرة الاجماع من الطبيعيين
 اهملوا افكارهم وجهلوا اقدارهم وشغلهم عن التفكير في مبدأهم
 ومنشأهم شغلهم بما زين لهم من حب الشهوات المذكورة في قوله
 تعالى: «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير
 المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحمر
 ذلك متاع الحياة الدنيا» . واما من كان سوياً ولم يمش مكباً على

وجهه لكونه : « كالانعام بل هم اضل سبيلا » وتأمل اجزاء العالم علم ان افضلها ذوات الارواح وافضل ذوات الارواح ذوو الارادة والاختيار في هذا العالم وافضل ذوي الارادة والاختيار الناظر في العواقب وهو الانسان فيعلم ان النظر في العواقب من خاصية الانسان وانه لم يجعل تعالى هذه الخاصية له الا لأمر جعله له في العقبى والا كان وجود هذه القوة فيه باطلا فلولم يكن للانسان عاقبة ينتهي اليها غير هذه الحياة الحسيسة المملوءة نصبا وهما وحرنا ولا يكون بعده حال مغبوطة لكان اخس البهائم احسن حالا من الانسان فيقتضي ان تكون هذه الحكم الالهية والبدائع الربانية التي اظهرها الله تعالى في الانسان عبثا كما نبه الله عليه بقوله تعالى : « اخسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون » فان احكام بنية الانسان مع كثرة بدائعها وعجائبها ثم نقضها وهدمها من غير معنى سوى ما تشاركه فيه البهائم من الاكل والشرب والسفاد مع ما يشوبه من التعب الذي قد أغني عنه الحيوانات سفه « كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا » تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . وما اظهر عند من التقي عن مناكبه دثار العماية صدق امير المؤمنين علي عليه السلام في قوله : الدنيا دارمر لا دار مقر فاعبروها ولا تعمروها

وقد خلقتم للابد ولكنكم تنقلون من دار الى دار حتى يستقر بكم
القرار . وكثير من الجهال اغتروا بقوم وصفوا بوفور العقل في
امور الدنيا حيث انكروا امر الآخرة فقالوا لو كان ذلك حقاً لم
ينكره امثالهم مع وفور عقولهم وكثرة فهمهم ولم يعلموا ان العقل
وان كان جوهرًا شريفًا فانه لا يتوجه الا حيث وجه ولا غناء
له الا فيما اليه صرف فاذا صرف الى امور الآخرة احكمها واذا
صرف الى امور الدنيا قبلها وعكف عليها واخذ بما سواها فنقص
بصيرته حينئذ عن الامور الآخروية كما نبه الله عليه في غير موضع
من كتابه وقد تقدم القول فيه

فصل

اعلم ان الموت المتعارف الذي هو مفارقة الروح للبدن هو
احد الاسباب الموصلة للانسان الى النعيم الابدي وهو انتقال
من دار الى دار كما روي انكم خلقتم للابد لكنكم تنقلون من دار
الى دار حتى يستقر بكم القرار فهو وان كان في الظاهر فناً
واضححلاً فهو في الحقيقة ولادة ثانية قال الشاعر في ذلك
تمخضت المنون له يوم اتى ولكل حاملة تمام
فانه جعل للمنون حملاً كحمل المرأة وتمخضت كتمخضها
وولادة كولادتها نبيهاً علي انه احد اسباب الكون . قال بعضهم

الانسان ما دام في دنياه جار مجرى الفرخ في البيضة فكما ان
من كمال الفرخ نفلق البيض عنه وخروجه منه كذلك من شرط
كمال الانسان مفارقة هيكله ولولا هذا الموت لم يكمل الانسان
فالموت اذ ضروري في كمال الانسانية ولكون الموت سبباً للانتقال
من حال اوضع الى حال اشرف وارفع سماه الله تعالى توفياً وامساكاً
عنده فقال تعالى : « الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت
في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى
اجل مسمى » ولهذا نقول العرب استأثر الله بفلان ولحق بالله
ونحو ذلك من الالفاظ ولاجل ان الموت الحيواني انتقال من
منزل ادنى الى منزل اعلى احبه من وثق بماله عند الله ولم يكره
هذا الا احد رجلين احدهما من لا يؤمن بالآخرة وعنده ان
لا حياة ولا نعيم الا في الدنيا كمن وصفهم الله تعالى بقوله
« ولتجدنهم احرص الناس على حياة ومن الذين اشركوا يود احدهم
لو يعمر الف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب ان يعمر » وقال
بعض من هذه طريقتة شعراً في هذا المعنى

خذ من الدنيا بحظ قبل ان تنقل عنها

فهي دار ليس تلقى بعدها اطيب منها

والثاني يؤمن به ولكن يخاف ذنبه فاما من لم يكن كذلك

فانه يجبه وبتناه كما احبه الصالحون وتمنوه . وقد روي عن النبي
صلي الله عليه وسلم انه قال : من احب لقاء الله احب الله لقاءه
وقال تعالى : (فتمنوا الموت ان كنتم صادقين) تنبيهاً على ان من
يكون متحققاً بحسن حاله عند الله لم يكره الموت . فالموت هو
باب من ابواب الجنة منه يتوصل اليها ولو لم يكن موت لم تكن
الجنة ولذلك من الله تعالى به على الانسان فقال : (الذي خلق
الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملاً) فقدّم الموت على الحياة
تنبيهاً على انه يتوصل به الى الحياة الحقيقية وعدّه علينا في نعمه
فقال : (كيف تكفرون بالله وكنتم امواتاً فاحياكم ثم يميتكم ثم
يحياكم) فجعل الموت انعاماً كما جعل الحياة انعاماً لانه لما كانت
الحياة الاخرية نعمة لا وصول اليها الا بالموت فالموت نعمة لان
السبب الذي يتوصل به الى النعمة نعمة ولكون الموت ذريعة الى
السعادة الكبرى لم يكن الانبياء والحكماء يخافونه حتى قال امير
المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام : والله ما ابالي اقع على
الموت او يقع الموت علي . وكانوا يتوقعونه ويرون انهم في حبس
فينتظرون المبشر باطلاقهم . وعلى هذا روي الدنيا سجن المؤمن
وجنة الكافر . وقيل انه لما مات داود الطائي سمع هاتف يقول :
أطلق داود من السجن . قال الله تعالى : (ولئن متم او قتلتم لألّى

الله تحشرون) تنبيهاً على ان الموت سبيل الحياة المستفادة عند الله تعالى . وقال تعالى : (ولئن قتلتهم في سبيل الله او متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) وقال تعالى : (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً بل احياء عند ربهم يرزقون فرحين . . الآية) وعلى هذا نبه الله تعالى بقوله : (ثم انشأناه خلقاً آخر فتبارك الله احسن الخالقين ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون) فنبه على ان هذه التغيرات خلق احسن فنقض هذه البنية لاعادتها على وجه اشرف كالنوى المزروع الذي لا يصير نخلاً مثراً الا بعد افساد جثتها وكذلك البر اذا اردنا ان نجعله زيادة في اجسامنا يحتاج ان يطحن ويعجن ويخبز ويؤكل فيغير تعبيرات كثيرة هي فساد لها في الظاهر وكذلك البذر اذا القي في الارض يعده من لا يتصور ما له وحاله فساداً فالنفس تحب البقاء في هذه الدار اذا كانت قدرة راضية بالاعراض الدنيوية رضا الجعل بالحش او جاهلة بما لها في المال

الباب الثالث والثلاثون

في فضيلة الانسان اذا شرف على الملائكة

قد تقدم ان الناس ضربان ضرب لم يحظ من الانسانية

الا بالصورة التخطيطية من انتصاب القامة وعرض الظهر والقوة على الضحك ولغو من النطق يجري مجرى الماء والنصديّة وهو دون البهائم . وضرب هو الانسان وهو المعنى بما خلق لاجله فمن كان كذلك فله حالتان احدهما حالته وهو في الدنيا ولم يقتم العقبة ويفك الرقبة بل هو صريع جوعة واسير شعبة تنتنه الارقة وتؤلمه البقة وتقتله الشرقة ولما يقض ما امره فهو ما دام في دنياه لا يحكم له بانه افضل من الملائكة على الاطلاق . والحالة الثانية قد اقتم العقبة وفك الرقبة بعدما قضى ما امره فصار من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون بل قد جعل في مقعد صدق عند مليك مقدر ذا حياة بلا ممت وغنى بلا فقر وعز بلا ذل وعلم بلا جهل وقد قامت الملائكة تخدمه كما قال تعالى : (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) فيئذ من جعل له هذه المنزلة فهو افضل من كثير من الملائكة اعاننا الله على بلوغ هذه المنزلة وجعلنا من المترشحين لها برحمته انه على ما يشاء قدير

فهذا آخر ما قصدت من بيان تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين
 تفعني الله به ومن نظرفيه برحمته انه على ما يشاء قدير والحمد
 لله وصلواته على خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين